Chateaubriand
Albert Ghorab عبير غراب

هدية من «الجامعة» «المجلة والجريدة» الى قرائها وملحق بالسنة الخامسة للمجلة

اتالا

ATALA

او

الحب والجهل والدين

في ظلمات اميركا الاولى

هي أجمل وأشهر رواية فرنسوية أنشئت بشأن اميركا وقد اشتهرت في عالم الادب بجمالها وآدابها اشتهار الميزرابل وبولس وفرجيني والكوخ الهندي وغيرها من نفائس الروايات . ومزيتها للقراء في اميركا وغير اميركا انها تصف القفار الاميركية وطبيعتها الجميلة وقبائل هنودها وعاداتهم واخلاقهم واديانهم وتأثير المبادىء الدينية الساذجة الصادقة في البشر باسلوب روائي رائق وغزل رقيق وغرام بالغ منتهى الشغف

تأليف

الفيكونت شاتوبريان Chateaubriand

من مشاهير كتّاب فرنسا

تعريب

فرح انطون Farah Antun

صاحب «الجامعة»

نيويورك ١ (يناير) كانون الثاني سنة ١٩٠٨

تمهيد للمعرب

كان بعض اخواننا الادباء في هذه البلاد يسألوننا حيناً بعد حين (متى تضعون لنا رواية كبولس وفرجيني والكوخ الهندي واوروشليم الجديدة) . فلما شرعنا في نشر رواية (مريم قبل التوبة) في ذيل المجلة ارتاحوا اليها وتركوا ذلك الطلب . اما نحن فلم ننسه وعقدنا النية منذ ذلك الحين على ابراز رواية اخرى لقراء الجامعة تعد في عالم الادب قرينة لرواية بولس وفرجيني والكوخ الهندي بل تفضلهما من وجوه كما ان هاتين الروايتين تفضلانها من وجوه أخرى . وهذه الرواية هي « اتالا » لمؤلفها الفيكونت شاتو بريان احد مشاهير فرنسا (١)

اغراض هذه الرواية

كتبَ شاتو بريان روايته هذه في احد اكواخ هنود اميركا في ولاية مسيسيبي (الولايات المتحدة) . واهم اغراضها وصف عيش الانسان الطبيعي الساذج في حالتي التوحش والمدنية . وتصوير حياة (الشعب الصيّاد) التي هي فاتحة المعيشة البشرية . وحياة (الشعب الزارع) التي هي درجة ارقى في سلم تلك المعيشة . وبيان ان الدين — كما صوّره المؤلف وليس كما يصوّره جاهلوه — هو أول الشرائع التي ترفع البشر من دركة الهمجية الى درجة المدنية . وان التحمس

(١) اتالا هي ثانية رواية لشاتو بريان تُرجمت الى اللغة العربية والرواية الاولى هي رواية « ابن سراج » وقد ترجمها سعادة الامير شكيب ارسلان

الديني مخالف لروح الانجيل وكله خطر وضرر اذا لم يكن مقروناً بالعقل والروية. واظهار تنازع الاهواء والشهوات والفضائل في قلب ساذج. وغلبة الفضيلة الدينية في الخاتمة على العاطفة التي هي أشد العواطف والكريهة التي هي أشد الكرائه ونعني بهما (الحب والموت)

وقد كان « لاتالا » حين ظهورها دوي شديد في اوروبا واميركا فتُرجمت الى اللغات الاوروبية وأصبحت تُعدُّ في جملة الكتب النفيسة الخالدة. قال المسيو دي فونتان بعد ظهور رواية « اتالا » وكتاب (روح المسيحية) للمؤلف نفسه ,, ان هذين الكتابين سيخلدان اسم مؤلفهما لدى الاجيال التالية ويكونان شرفاً لاوائل القرن التاسع عشر لظهورهما فيه ''

مقابلة بين عصر اتالا وهذا العصر

ومما لا شك فيه ان العصر الذي كتب فيه شاتو بريان روايته وكتابه يختلف عن عصرنا هذا الذي سادت فيه (الفلسفة الوضعية) و (المبادئ الوضعية) Positivisme فان عصر شاتو بريان كان قد شهد حملة الانسيكلوبيذيين على الدين وقيام دعاة الثورة الفرنسوية ينقضون اساس الهيئة الاجتماعية القديمة. ولما فرغوا من هذا النقض وجدوا انهم استطاعوا الهدم في عالمي الدين والاجتماع وقدروا على وضع شيء اجتماعي جديد في موضع الشيء الاجتماعي المهدوم ولكنهم عجزوا عن وضع شيء ديني جديد في موضع الشيء الديني المهدوم. فتشتت الافكار وانتقض النظام وأدى الافراط في الحرية الى الفوضى الفكرية. فبناء على هذه الاسباب كانت الافكار مهيأة لرد الفعل. فلما ظهرت (أتالا) و (روح المسيحية) حدث رد الفعل وسمت منزلة الدين في فرنسا بعد انحطاطها. ولذلك قالوا ان هذين الكتابين كانا أشد فضلاً في اعادة افكار كثيرين من الفرنسويين في ذلك العصر الى الدين من جميع الكنائس والرهبان والمرسلين

اما عصرنا هذا فانه وا أسفاه قد تفلت من قيوده الجيلة القديمة منذ وضع اوغوست كونت اساس الفلسفة الوضعية المتسلطة الآن على افكار البشر في الكرة الارضية والتي يقول اهلها ان الانسانية زاحفة اليها بخيلها ورجلها وان كل

صرخات القلب الديني وجماله وسذاجته لا تردها عنها . وانما فائدة (اتالا) من هذا الوجه في هذا العصر إظهار كنه الدين وحقيقة وظيفة رجاله . فكل قارئ يقرأ فضال الاب اوبْره في هذه الرواية واقواله لا يتمالك من مقابلة حياته بحياة زملائه الذين يعاصروننافيتمني لو امكن كل واحد منهم ان ينسج على منواله

اما باقي فوائد (اتالا) ومحاسنها فنترك الكلام عنها الى سنت بوف سلطان النقد في عصره وفي كل عصر واليك شهادته في اتالا بعد ظهورها

شهادة سنت بوف

في اتالا

وهو سلطان النقد في عصره وفي كل عصر

قال في تقدمة هذه الرواية

,, لا اسمي هذه الرواية رواية . بل اسميها (قصيدة غزلية) نصفها وصفي ونصفها دراماتيكي جاوز فيها المؤلف حدود المتقدمين حتى حدود (بولس وفرجيني) . وغرضه فيها ان يرسم صورة احتكاك الهوى في قلبين احدهما ذو طبيعة متمدنة والآخر ذو طبيعة متوحشة التقيا في قفر سبسب لم يصفه احد قبل المؤلف . وفوق ذلك فانه قصد الى مقابلة هذا (الهوى) في الخاتمة بالسكينة الدينية وتصوير (الدين) تصويراً يجوز ان يُعدّ اكتشافاً جديداً له . وان قريحة المؤلف في هذا الكتاب لتستولي على القارئ بعظمتها وجمالها وجديد نزعتها وتؤثر في اعماق نفسه تأثيراً يجعل النصر لها . اقرأ تلك الرواية المعبودة (بولس وفرجيني) ثم اقرأ بعدها (اتالا) فانك بعد قراءتها لتشعر بانك جُذبتَ اليها بالرغم منك وطارت نفسك اليها شعاعاً . ولا تسل هل النور الالهي الذي تراه امامك قد مرّ على لسان بطلها (شكتاس) أم على قلم المؤلف فان الامر الهامّ هو انه قد مرّ امامك . وعاصفة الهوى القلبي التي تعصف فيها امامك تثير في نفسك الاشجان

السرّية وتشعرك بذلك السم الذي يتسرب الى نفسك تسرّب الحلم فلا تستطيع الافلات منه بعد معرفته · فتروح وانت تحمل السهم المسموم الذي رُميتَ به من ذلك القفر السحيق

,,وقد كتب المسيو جوبر عن (أتالا) فقال (في اصبع الساحر سحر خاص بذلك الصانع · فأي شيء مسه هذا الصانع امدّه بذلك السحر فادهش به النفوس · وهكذا شاتو بريان · فلا تخافي عليه ان لا تنجح روايته (اتالا) فانها ستنجح دون شك لانه (الكاتب الساحر) '' (١)

﴿ ترجمة اتالا ﴾

بقي ان نقول كلمة في ترجمة اتالا

قال الشاعر

لا يعرف الشوق الا من يكابده ولا الصبابة الا من يعانيها

ونحن نقول لا يعرف صعوبات الكتابة الا من يعاني تعريب رواية كرواية أتالا · فان سبك معانيها بقالب عربي يليق بها · وتأدية المراد منها تماماً · والايجاز مع حفظ سلسلة اغراضها ومغازيها الادبية والغرامية · وضبط اخلاق اشخاصها ضبطاً يصون الصورة التي رسمها لهم المؤلف ويجعلها جميعاً متلائمة مطابقة اصول البسيخولوجيا · ووضع الاستعارات والتشابيه الاوروبية والاميركية والهندية في لفظ عربي ومعنىً عربي — ان كل هذا لما يتحطم له قلم الكاتب ودماغه ويسيل العرق من جسمه حتى في مثل هذه الايام ايام الزمهرير ··· وكثيراً ما اقمنا يومين كاملين على ترجمة ثماني صفحات من أتالا لصعوبة ضبط افكار المؤلف · وما

---

(١) « المعرب » من كتاب للمسيو جوبر الى مدام دي بومون وكانت قبل ظهور (اتالا) تخشى انها لا تروق الجمهور الفرنسوي لانها تصف بلاداً اميركية بعيدة ·

هذه باول مرة علمنا بها ان الترجمة اصعب من التأليف عند من يريد مراعاة الاصل بدقة وضبط وابراز مادة راقية مثله

فعسى ان جهدنا في رواية (أتالا) يرضي قراءنا فتجيء حسبما يشتهون ويليق بهذه الرواية الجميلة

(فرح انطون)
صاحب الجامعة

نيو يورك «الولايات المتحدة»
١ كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٠٨



مؤلفات (فرح انطون) صاحب الجامعة

❋ ابن رشد وفلسفته ❋ وفيه ترجمة فيلسوف الاسلام العظيم ابن رشد وثار يخ نفيه لاشتغاله بالفلسفة وتاريخ فلسفته في اوروبا وعند اليهود ورسمه ورسم قرطبة مدينة الفلسفة وردود المفتي محمد عبده على الجامعة وردود الجامعة عليه. ثمنه ريال وربع وعدد صفحاته ٢٢٨ صفحة

❋ اورشليم الجديدة — او فتح العرب بيت المقدس ❋ هي رواية غرامية تاريخية فلسفية اجتماعية فكاهية فيها تاريخ فتح العرب بيت المقدس وتاريخ سلطنة بزنطية القسطنطينية واسباب ضعفها وسقوطها وتخلل ذلك مباحثات سياسية ودينية واجتماعية في احوال الامم الثلاث اليهود والمسيحيين والمسلمين. ثمن الكتاب ريال وربع وعدد صفحاته نحو ٢٠٠ صفحة

❋ الوحش الوحش الوحش — او سياحة في ارز لبنان ❋ رواية اجتماعية فلسفية ادبية فكاهية موضوعها سياحة في ارز لبنان وفيها وصف الارز الذي يتقاطر الناس لمشاهدته من اميركا واوربا ورسمه وتتخللها قصة فكاهية ادبية ورد فيها كثير من وصف عادات لبنان. ثمنها نصف ريال

❋ تاريخ المسيح ❋ معرب عن الفيلسوف رنان تعريباً مختصراً يزيل منه كل ما لا يجب نشره وفيه مقدمة طويلة لصاحب الجامعة. ثمنه ريال

❋ الدين والعلم والمال ❋ فيه بحث فلسفي في المسألة الاجتماعية باسلوب رواية وذكر ما بين الدين والعلم والمال من التنازع ثمنه نصف ريال

❋ الكوخ الهندي ❋ رواية فلسفية مزينة برسوم موضوعها اين نجد الحقيقة وكيف نجدها وفيها وصف بلاد الهند وبراهمتها. ثمنه نصف ريال

❋ بولس وفيرجيني ❋ رواية طبيعية ادبية فلسفية حبية مزينة برسوم عديدة موضوعها اين نجد السعادة الحقيقية وهي اشهر رواية في القرن الثامن عشر. ثمنها نصف ريال

❋ رواية ابن الشعب ❋ هي رواية سياسية اجتماعية يمثلها جوق الشيخ سلامه في مصر وقد لخصناها في الجامعة

❋ نهضة الاسد ❋ هي اربعة اجزاء في اسلوب رواية سياسية غرامية تبحث في تاريخ الثورة الفرنسوية واعمال اعاظم رجالها

❋ البرج المائل ❋ هي رواية سياسية غرامية يمثلها جوق الشيخ سلامه في مصر وتمثل ما كان في فرنسا في عهد الملكية من المظالم

❋ مريم قبل التوبة ❋ تحت التأليف وهي تنشر في مجلة الجامعة تباعاً

تمهيد للمؤلف

يصف فيه الطبيعة في الولايات المتحدة قبل مدنيتها والاماكن التي وقعت فيها حوادث روايته. وقد كتب وصفه هذا في اواخر القرن الثامن عشر لانه فرّ من فرنسا الى اميركا وساح فيها بعد حوادث الثورة الفرنسوية تخلصاً من اضطهاد الغلاة في الجمهورية للنبلاء لان عيلته كانت منهم

كان لفرنسا في الزمن القديم في اميركا الشمالية سلطنة واسعة تمتد من لبرادور الى فلوريدا ومن شواطئ الاوقيانوس الاتلانتيكي الى اقصى بحيرات كندا العليا . وكانت تسقي هذه السلطنة الواسعة اربعة انهر وهي نهر سان لوران الذي يصب في خليج مسمى باسمه في جهة الشرق . والنهر الغربي الذي تجري مياهه الى ابحر مجهولة (١) ونهر بوربون الذي ينساب من الجنوب الى الشمال ويصب في مرفاء هدسن . ونهر مسيسيبي الذي يتدافع من الشمال نحو الجنوب ويصبء في خليج المكسيك

وهذا النهر الاخير (مسيسيبي) يجتاز مسافة ألف فرسخ و يسقي اراضي دعاها سكان الولايات المتحدة (جنة عدن الجديدة) ودعاها يومئذٍ الفرنسويون باسم جميل وهو (لويزيانا) . وهناك أنهر اخرى كنهر ميزوري وايلينويز واكانزا واوهيو وواباش وتنسي — كلها متصلة بنهر مسيسيبي تصب فيه . ففي

(١) اصبحت اليوم معلومة

فصل الشتاء حين تفيض هذه الانهر وتقتلع الزوابع النباتات والاشجار وتلقيها في مياهها تجتمع على وجه المياه هذه البقايا الملقاة فيها وتتلاحم وتتماسك وينبت عليها النبات وينمو كما ينمو في جزيرة . ثم تتجه هذه الجزر التي كونتها الزوابع مندفعة بحركة الماء الى نهر مسيسبي فيحملها هذا النهر الى خليج المكسيك حيث يُكثر بها عدد مصابه منشداً في طريقه بين الجبال والاودية اناشيد الماء الجميلة . فكأنه نيل مصر في صحراء غير متناهية

والمَشاهد على ضفتي هذا النهر مختلفة . فترى الارض في الضفة الغربية مكسوة بانواع النباتات لا يُدرك الطرف آخرها وترعى بينها الوف من المواشي الوحشية . وربما رأيتَ على حين بغتة بقرة وحشية تشق الماء وتخوض النهر سباحة الى احدى جزائره وتجثم على العشب تستريح فتظنها الاهة ذلك النهر خرجت منه واليه تعود . اما الضفة المقابلة لتلك الضفة فانها مكسوة بالاشجار الباسقة والشجيرات الصغيرة من جميع الالوان والانواع وقد التفت عليها النباتات فجعلت تحتها مغاور وكهوفاً . وبين هذه الاشجار والشجيرات التي لا تُحصى الوف من الحيوانات والطيور وضعتها هناك يد الخالق الازلية لتأهل ذلك الخلاء وتنشر فيه جمال الحياة . فتارة ترى دبّاً يترنح على جذع شجرة كأنه سكران مما تناوله من العنب . وطوراً ترى سنجاباً يلعب في ظل الاوراق الكثيفة . وآونةً ترى حمام فرجينيا وهو بقدر عصفور صغير يهبط سرباً سرباً الى مروج كستها ثمار الفريز لوناً قرمزياً . وأخرى ترى الببغاء وغيرها من الطيور تتعلق بقمم الاشجار متداعبة . والافاعي الطيارة تفح وهي تتدلى في رأس الشجرة كأنها أحد اغصانها .

وكما ان الهدوء والسكون سائدان في الضفة الغربية فالحركة سائدة في هذه الضفة . فانك تسمع فيها صوت نَقْدِ الطيور جذوع الاشجار وصوت حركات الحيوانات حين مسيرها او رعيها العشب او كسرها نوى الاثمار بانيابها . وتبلغ

الى آذانك وانت واقف فيها حفيف اوراق الشجر واصوات اضطراب ماء النهر وخريره وصراخ حيواني بعيد وانين خارج من قلب حيوان يحنّ او يشكو وتغريد شجي يشرح الصدر ويثير الخاطر · وبالجملة تسمع اصواتاً مختلفة ولكنها في وحشة ذلك الخلاء تظهر موءتلفة ائتلافاً شجياً · ولكن حين تهبّ ريح شديدة وتحرك الكائنات في تلك الوحدة وتميل حيواناتها المعلّقة بالاغصان وتمزج الوانها والوان الاشجار بين ابيض وسماوي وأخضر ووردي وتحمل جميع اصواتها وتمزج بينها فتجعلها صوتاً واحداً — حينئذ تعلو من جوف تلك الغابات جلبة شديدة وتتخذ عيون تلك الحيوانات منظراً يعجز قلمي عن وصف حقيقته وتصويره لمن لم يشهد ارض الطبيعة وكائناتها كما خلقها الله قبل ان تمدّ اليها يد الانسان

﴿ الفصل الاول ﴾

الفتى الفرنسوي رنه يهجر المتمدنين و ينخرط في سلك المتوحشين * قبيلة نتشز الهندية ورحلتها لصيد كلب الماء * بدء حديث الشيخ

لما اكتشف الاب ماركِت وشقي الحظ لاسال ارض مسيسبي أقام الفرنسويون الاولون الذين رحلوا اليها في بيلوكسي ونيوارلنس · وكانت قبيلة (نَتشز) الهندية ذات قوة وسلطان في تلك الجهات فحالفها اولئك الفرنسويون · وكان بين هوءلاء الهنود شيخ يدعى شَكتَاس (١) مشهوراً عند قومه بالروية والعقل لتأدبه في مدرسة الدهر · فانه أُخذ أسيراً الى مرسيليا ظلماً وعدواناً فاقام في سجن الاشغال الشاقة مدة طويلة ثم أُخرج منه وقُدّم الى الملك لويس الرابع عشر فخادثه الملك وأذن له بمشاهدة حفلات فرساليا الملكية · وقد

(١) معناها في لغة الهنود « الصوت الشجي »

شاهد ايضاً اكابر ذلك العصر وحادثهم وحضر روايات راسين وسمع تآبين بوسويه · والخلاصة ان ذلك الرجل الوحشي شاهد أرقى مظاهر الهيئة الاجتماعية المتمدنة

وقد عاد هذا الشيخ الى وطنه منذ عدة سنوات ليعيش مستريحاً · ولكنَّ السماء لم تكتب له الراحة فانه ابتلي بمرض في عينيه جعله اعمى لا يُبصر · فجعلوا معه فتاة من قبيلته تسير به في شواطئ مسيسبي وتهديه الى الطريق كما كانت انتيغونا تهدي خطى (اوديب) على نهر سيتارون

ومع كل ما أصاب الشيخ شكتاس بسبب الفرنسويين فانه كان يحبهم · وكان يتذكر على الدوام وداد فنلون وضيافته له في فرنسا فكان يتمنى ان يجزي هذا الرجل الفاضل بفعل جميل يفعله هو مع أحد ابناء وطنه

فسنحت له هذه الفرصة في سنة ١٧٢٥ · فان فتى فرنسوياً يُدعى (رِنِه) هجر وطنه في هذه السنة الى لو يزيانا مسوقاً بشهواته ومصائبه · ولما بلغ اليها رحل عنها وركب نهر مسيسبي قاصداً قبيلة (نتشز) وسألها ان ترضاه محارباً في جندها · فلقيه الشيخ شكتاس وحادثه لاثنائه عن عزمه واذ رآه لا ينثني عنه تبنّاه وازوجه من فتاة هندية اسمها (سِلُونا)

وبعد حين تأهبت قبيلة نتشز لصيد كلب الماء · فاجتمع مجلس (الساشم) (١) واجمعوا على اختيار الشيخ شكتاس لقيادة هذه الحملة مع كونه اعمى طاعناً في السن وذلك لان جميع قبائل الهنود تعرفه وتحترمه · فقبل مسير الحملة شرع اهلها في الصلاة والصيام وبدأ مفسرو الاحلام يفسرونها وأخذوا يقربون القرابين ويُضرمون ناراً وينظرون فيها ليروا ارادة الارواح · ثم أكلوا من لحم الكلب

(١) الشيوخ او المشيرون

المقدّس وركبوا زوارقهم تجري باشرعة من جلود الحيوانات وكان رنه في جملتهم . فساروا في نهر مسيسبي ثم عبروا منه الى نهر اوهايو .

وكان الوقت خريفاً وقفار كنتكي الجميلة تنشر وتطوى امام هذا الفتى الفرنسوي . ففي ذات ليلة ورجال القبيلة مستغرقون في النوم تحت جلود الحيوانات التي تسير بها زوارقهم والقمر ينشر عليها اشعته الفضية اقام رنه والشيخ شكتاس ساهرين بين رفاقهما لا يعرف الكرى اجفانهما . فالتفت رنه الى شكتاس وسأله ان يحدثه عن حوادث حياته قطعاً للوقت . فنهض شكتاس الى مقدم الزورق يتبعه رنه وجلسا هناك وشرع الشيخ في حديثه فقال :

الصيّادون

الفصل الثاني

أسير الحرب والحب

„ ان الاقدار التي جمعتنا يا بنيَّ أمرها غريب . فانك متمدن اردتَ ان تكون متوحشاً وانا متوحش شاء الروح الاعظم (لسبب لا اعلمه) ان يجعلني متمدناً . وقد دخلتُ وإياك الى الحياة من بابين متقابلين متعارضين فجئتَ انت تستريح في مكاني وذهبتُ انا اجلس في مكانك . ولذلك كان لنا في الامور رأيان مختلفان . ولكن من منا كان اكثر ربحاً واقل خسارة في هذا التبادل ؟ هذا أمر لا يعلمه الا الارواح التي علمُ أدنّاها علماً يفوق علم جميع الناس

„ في قمر الازهار التالي (١) يمرُّ على ولادتي سبع مرات عشر ثلجات وفوقها ثلاث ثلجات (٢) وقد ولدتني امي على شاطئ مسيسبي . وكان بعض الاسبانيين قد أقام في ميناء بنساكولا ولكن لم يكن في لويزيانا أحد من البيض

(١) شهر ايار « مايو »

(٢) الثلجة هنا السنة أي عمره ٧ في ١٠ مع ٣ = ٧٣

بعد • وحين سقوط الاوراق للمرة السابعة عشرة بعد ولادتي (١) سرتُ مع ابي المحارب اوتاليسي لمقاتلة قبيلة موسكوكوانج ذات القوة والسلطان في فلوريده • وكان الاسبانيون حلفاء لنا في هذه الحرب التي وقعت على احد فروع نهر مويبل ولكن (اريسكوي) (٢) والارواح خذلونا فانتصر علينا اعداؤنا وقُتل ابي في تلك الحرب وقد جُرحتُ فيها جرحين وأنا ادافع عنه • فيا ليتني هبطتُ يومئذ الى بلاد النفوس (٣) • ولكن الارواح لم تشأ ما شئتُ فجرني الفارّون من قومنا الى بلدة سنت اوغيستين • فكاد بعضهم في هذه البلدة يخطفني للعمل في معادن المكسيك ولكن شيخاً اسبانياً يُدعى لو بيز رقّ لصباي وسذاجتي فحماني وادخلني الى بيته حيث كان يعيش مع اخت له لانه كان غير متزوج

„ فعُني بي الاثنان عناية شديدة وشرعا في تهذيبي وتدريسي • ولكني بعد ان صرفتُ في سنت اوغيستين ثلاثين بدراً (٤) سئمتُ حياة المدن ودبّ الهزال في جسمي والضجر في نفسي • فجنح قلبي الى معيشتي الهندية القديمة فتارة كنتُ اقيم بضع ساعات اشاهد رؤوس الغابات عن بعدوطوراً كنتُ أجلس على شاطئ النهر اتأمل في مياهه الجارية امامي وافكر حزيناً آسفاً في الاحراش التي تجري تلك المياه منها • ولما عجزت عن الصبر عنها ارتديت ملابسي الهندية القديمة وحملتُ قوسي ونبالي في يد وحملتُ ملابسي الاوروبية في الاخرى وقصدتُ لو بيز المحسن اليّ فانطرحتُ على قدميه وقلت له في نفسي على مسمع منه كل كلمة سوء لجحودي جميله وعزمي على تركه • وسألته ان يعذرني لانني اكاد أهلك اذا أقمت على معيشة المدن ولم اعد الى معيشة الهنود

„ فدهش لو بيز وأخذ يثنيني عن عزمي ويصوّر لي الاخطار التي ساركبها

«١» يعني سقوط اوراق الخريف أي ١٧ سنة «٢» اله الحرب عند الهنود كما ان المريخ اله الحرب عند الرومان «٣» جهنم «٤» شهراً

من وقوعي أسيراً في يد قبيلة موسكوكوانج وغير ذلك . ولكنه لما رآني مصراً على عزمي بكى وعانقني وقال ,, سرْ اذاً يا بني . سرْ يا ابن الطبيعة واسترد الحرية فاني لا اريد حرمانك منها . ولو كنتُ فتىً مثلك لرافقتك الى القفار حيث لي فيها ايضاً تذكارات جميلة والقيتك بيدي الى امك . وارجو منك حين تُصبح في احراشك ان تتذكر ذلك الاسباني الشيخ الذي احتضنك . وتتذكر خاصةً ان اول تجربة جربتَ بها قلوب البشر نفعتك ولم تضرك . فلعل هذه الذكرى تحملك على محبة بني جنسك وحسن ظنك بهم

,, ثم صلى لوبيز صلاة الى اله المسيحيين الذي لم اتبعه ولا لوبيز أكرهني على اتباعه وافترقنا باكيين

,,ولكني ما لبثتُ ان عوقبت على جحودي جميل المحسن اليَّ . فانني تهت في الاحراش لقلة خبرتي كما توقع ذلك لوبيز فرآني فريق من رجال موسكوكولج وسيمينول وعلموا من لباسي والريش المغروس في رأسي انني من قبيلة نتشز فاسروني . وسألني زعيمهم ما اسمي فاجبته ,, انني أُدعى شكتاس بن اوتاليسي بن ميسكو اللذين حزّا رؤوس مائة بطل من ابطال موسكوكولج '' فضحك الزعيم وقال ,, انت ابن اوتاليسي بن ميسكو . افرح واطمئن فانك ستُحرق حياً '' فاجبته ,, لا بأس . انني لعلى استعداد '' ثم انشدت على مسمع منهم نشيد الموت

,, ومع انني كنتُ اسير قبيلة موسكوكولج لم اتمالك من الاعجاب برجالها ورجال قبيلة سيمينول المحالفة لها . فان كل شيء عندهم يدلُّ على الرضى والبشاشة والمحبة . وهم اقوياء خفيفو الحركة منبسطو الاسرة ساكنو البال سريعو الحديث . وكان مع الحملة نساء فرقّ النساء لصباي واقبلن عليَّ يسألنني عن امي وزمن طفوليتي . فسألنني هل علقتْ امي سريري باغصان الاشجار الزاهرة ؟

وهل كانت الريح تميل سريري بين الاغصان والازهار ؟ ثم سألنني هل رأيتُ احلاماً لذيذة ؟ وهل نصحتْ لي اشجار الوادي السري ان احب واوحت اليّ الحب ؟ فكنتُ اجيب الامهات والعذارى بقولي (انتن جمال النهار وزينته . والليل يعشقكن كما يعشق قطر الندى . الرجل يخرج من احشائكن ليتعلق بثديكن وشفاهكن . ولكنّ كلامٌ ساحر يسكّن كل ألم ويطرد كل غم . هذا ما تعلمته من امي التي لا أراها بعد الآن)

,, فكان هذا الثناء يطربهن ويزيد في ميلهنّ اليّ . فكنّ يأتينني بالهدايا من زبدة الجوز والسكر وحلوى الذره ولحم الدببة الجاف (جمبون) وجلود كلب الماء وفراش ارقد عليه واصداف اتزين بها . وكن يغنينني ويضاحكنني ثم يذرفن الدمع كلما فكرن بانني سأُحرق

,, ففي ذات ليلة والحملة قد نزلتْ في طرف غابةٍ كنتُ جالساً قرب (نار الحرب) وبقربي الصياد الذي وُكل بي واذا بي اسمع صوت حفيف ثوب على العشب . فالتفتُ فابصرتُ امرأة نصف وجهها مغطىً بنقاب وقد قصدتني وجلست بجانبي . فنظرت اليها على ضوء النار فوجدت الدمع يجول في عينيها وصليباً صغيراً يسطع على صدرها . وكانت جميلة جمالاً منتظماً . وكان على وجهها شيء يقصر عنه الوصف ويدل على فضيلة وشدة هوى نفسها شدةً تجذب النظر اليها بجاذب لا يُدفع . وعدا عن ذلك كان لها ابتسامة سماوية وفي ملامحها من دلائل الحنان والانكسار ما يسحر اللب

,, فظننتُ انها (عذراء الحب الاخير) تلك العذراء التي يرسلونها الى الاسير المحكوم عليه بالاعدام لتحلّي في نفسه مرارة الموت قبل إعدامه . فقلتُ لها باضطراب لم يكن ناشئاً عن خوف النار : (ايتها العذراء . انك أهل (للحب الاول) لا (للحب الاخير) فان نبضات قلبٍ سيسكن بعد حين لا يمكنها

ان تجاوب نبضات قلبك كما يجب · فكيف يمكنني المزج بين الحياة والموت · دعيني وليكن غيري اسعد مني)

,, فقالت الفتاة ,, كلا · لست (عذراء الحب الاخير) ولكن اخبرني هل انت مسيحي '' فقلت ,, انني لم اخن قط ارواح الكوخ الذي ولدتُ فيه'' فاظهرت الهندية التملل وقالت ,, انني اشفق عليك لانك لم تدخل في المسيحية بل بقيتَ وثنيّاً · انني أُدعى (أتالا) ابنة سيماغان ذي الاساور الذهبية ورئيس هذه الحلة · وقد نصّرتني امي · ونحن الآن سائرون الى ابالاشوكلا حيث تُعدم حرقاً ''

,, قالت الفتاة هذا الكلام ثم نهضت وسارت

وهنا سكت الشيخ ليمسح دموعه لانه تذكر تذكاراً مؤلماً ثم قال ,, انت ترى يا بني ان شكتاس مع شهرته بالحكمة والعقل لم يكن كل حياته حكيماً عاقلاً · فان احدنا لا يكاد يفتح عينيه للنور حتى تجري منهما الدموع · وقد استمرّت هذه الفتاة تأتيني في كل ليلة لتحادثني · فانتهى بي الامر ان هجر الكرى جفنيّ وأصبحتْ اتالا تملأ قلبي كما يملأه تذكارات كوخ اجدادي

,, وبعد مسير الحلة ١٧ يوماً هتف الزعيم هتاف الدعوة الى النزول للاستراحة · فأخذوني الى شجرة في نجوة من الارض قرب احد (الينابيع الطبيعية) التي يكثر وجودها في فلوريدا وربطوني بها وجعلوا عليّ حارساً يحرسني · فما لبثت اتالا ان اتتني وقالت لحارسي : ايها الصياد اذا شئت صيد شاة البرّ فدونكها وانا احرس الاسير · فطرب الصياد لكلام ابنة رئيسه واندفع يعدو وراء الشاة في السهل وجلست اتالا قريبة مني

,, ومن متناقضات القلب البشري ان اتالا لما جلست بجانبي اصبحتُ خائفاً مضطرباً لانفرادي بها ولم اجد كلمة اقولها لها مع انني كنتُ احبها حباً

تملك قلبي اصبو لذلك الانفراد لاشرح لها ما في نفسي . ويظهر ان اتالا كانت مضطربة كاضطرابي فلزمنا السكوت برهة كأن ارواح الحب عقدت لساننا واغاضت ماء كلامنا . ثم ان اتالا تغلبت على نفسها وقالت ,, ايها المحارب ان وثاقك ضعيف فيمكن قطعه فتخلص بسهولة '' فلما سمعت هذا الكلام عاودتني جرأتي فانطلق لساني فاجبت ,, تقولين ان وثاقك ضعيف ايتها المرأة . . . الا تعلمين انه اصبح شديداً . . . . '' فترددت اتالا حيناً ثم مدت يدها الى الحبل الذي كنت مشدوداً به الى جزع الشجرة فحلت عقدته وقالت ,, انجُ الآن بنفسك '' فتناولت طرف الحبل والقيته الى يدها وضغطت على اصابعها لتقبض على الحبل وقلت ,, استرديه فانني اكره النجاة بدونك '' فقالت ماذا اصابك انسيت انك ستحرق ؟ '' فقلت ,, اتى علي زمن كانت فيه امي تحملني على ظهرها في جلد كلب ماء . وكان لابي كوخ جميل وشياه تشرب الماء من مائة شلال . اما الآن فانني وحيد طريد في الدنيا لا وطن لي ولا منزل . فاذا سرت وحدي فلا اجد صديقاً يضع على جثتي بعد موتي قليلاً من العشب لدفع الذباب عني . فان جثة الغريب المسكين لا يلتفت اليها احد ''

,, فرق قلب اتالا لهذا الكلام وهطلت دموعها فامتزجت بماء النبع الذي كان بجانبنا . فاردفت بقولي متحمساً ,, فلو كان قلبك ينطق بما ينطق به قلبي لوجدنا لنا في القفار ملجأ يخفينا عن الابصار . فان شيئاً قليلاً يكفي ابناء الاكواخ مثلنا ليكونوا بسعداء . فيا فتاة هي الذ في النفس من احلام الزوج الاول . يا حبيبتي — وأجترئ على ان ادعوك كذلك — شددي عزمك واتبعيني ''

فلما سمعت اتالا كلامي اضطربت وقالت ,, ياصديقي الصغير انك تتكلم كما يتكلم البيض ومن السهل خديعة فتاة هندية مثلي '' قلت وقد كدت اطير فرحاً : انك تدعين (صديقك الصغير) عبداً مسكيناً مثلي . . . . '' فقطعت كلامي واقبلت

عليّ ومالت نحوي قائلة بلهجة العتاب ,, تقول انك عبد مسكين '' فقلت اقبي لي دليلاً على انني لست كذلك بقبلة من شفتيك تكون شاهداً على صدق كلامك ,, وكما يتعلق العصفور بغصن زاهر تعلقت بعنق اتالا واقمت لاصقاً بها وجهاً لوجه وفماً لفم

,, ولكن واحسداه يا بني . ان الساعة التي اصبت فيها من اتالا دليلاً على حبها كانت الساعة التي هدمت جميع آمالي فيها . فانطقي الآن يا شمور شكتاس البيضاء واعربي عن مبلغ دهشتك حين سمعت من ابنة سماشم هذه الكلمات . قالت ,, ايها الاسير الجميل انني اجبتك الى سؤالك ولكني لا اعلم الى اين يقودنا هذا الهوى لان ديانتي تفصلني عنك الى الابد . آه يا اماه ماذا فعلت .... '' ثم سكتت اتالا كانها تريد اخفاء سرٍ كادت تبوح به . فاصابني اليأس من كلامها هذا فصحت متألماً ,, اذاً سأفعل فعلك واكون قاسياً مثلك . فانني امتنع من الفرار وسترينني بعينيك في وسط لهيب النار وتسمعين باذنيك انين لحمي وعظمي . فلعلَّ ذلك يسركِ ''

,, فقبضت اتالا على يدي وصاحت ,, حقاً انني اشفق عليك ايها الفتى الوثني المسكين . ولكن لماذا انت لا تشفق عليّ وتريد ان اذرف كل ما في عيني من الدموع . انني لا اقدر على الفرار معك . ليت الجوف التعيس الذي حملكِ يا اتالا القى بك الى التماسيح في النهر ''

,,وفي ذلك الحين شرعت التماسيح في النهر تصرخ لان الشمس كانت اوشكت ان تغرب . وبعد سكوتنا برهة قالت اتالا هيّا نسير من هنا . فسرت مقيداً بالحبل وطرفه في يدها وأخذنا تتنزه في الربى القريبة . فيا ما اجملكِ يا اول نزهة لاول حب . انني في تلك الساعة ذهلت عن نفسي ونسيت حريتي التي جحدتُ جميل لو يبز من اجلها ولم يبقَ لي فكر او همٌّ في الموت الذي اتوقعه بل اصبح

فكري وهمي في اتالا وحدها ٠ وفقدتُ قوة العقل والارادة وسقطتُ كما بدفع دافع الى منزلة الطفولية

,,وفي اثناء نزهتنا حاولت اتالا اقناعي بالفرار وحدي وقد سلكت معي كل طرق الرجاء والالتماس فاجبتها : عودي بي الى شجرتي وشديني اليها بالحبل الذي في يدك والا عدت وحدي الى منازل الحلة وسلمت نفسي ٠

وفي النهار التالي نزلت الحلة في واد قرب بلدة (كوسكويلا) عاصمة قبيلة سيمينول ٠ فقصدتني اتالا في ظلام الليل والناس نيام وسارت بي الى غابة قريبة لتقنعني بوجوب فراري ٠ فرأينا في خلال الاشجار مشعلاً يضيء وحامله يغني٠ وكان حامله شاباً سائراً لاستعطاف حبيبة له فاذا اطفأت نار المشعل حين التقائها به كان ذلك دلالة على رضائها باتخاذه زوجاً لها واذا تلثمت ولم تطفيء المشعل كان ذلك دليلاً على ردها طلبه ٠ وكان الشاب يغني في صفاء ذلك الليل غناء هذا مطلعه

,, تقدمتُ الفجر على قمم الجبال طالباً حامتي المنفردة بين سنديانات الغابة٠ ''
,, قلدتُ عنقها قلادة من حب الخزف الفاخر ٠ ثلاث منها حمراء رمزاً ''
,, الى حبي ٠ وثلاث بنفسجية اللون رمزاً الى خوفي ٠ وثلاث زرقاء ''
,, رمزاً الى أملي ''

,, ثم مررنا قرب قبر طفل جُعل هناك ليكون حداً فاصلاً بين املاك قبيلتين ٠ وكانت النساء يمرون بالقبر ويفتحن شفاههن لتدخل في احشائهن روح ذلك الطفل لاعتقادهن ان روحه تتراوح وترفرف هناك بين الازهار والاشجار ٠ فأثر فينا غزل ذلك المغني وحبه ومشهد الامومة لدى هذا القبر ٠ فتضاغطت يدانا من تلقاء نفسها وتوردت وجنتا اتالا هوىً وخجلاً وثارت نفسي حباً وشغفاً فحملتُ أتالا بين ذراعي ودخلتُ بها الى جوف الغابة وهناك

انحأت عقدت لساني فقلت لها أقوالاً لا يحضر على شفتي الآن شيء منها. أجل يا بني ان الشيخوخة تفقد بعض مزايا الشباب كما تفقد ريح الجنوب الحارة حرارتها اذا مرت بجبال الثلج . وما تذكارات الحب في نفس الشيخ الا كأشعة النهار بعد مغيب الشمس اذا انعكست الى قرص القمر الطالع في الافق . فهي فاترة ضعيفة

,,فما الذي كان حينئذ ينقذ أتالا ؟ ماالذي كان يمنعها حينئذ من السقوط بين ذراعيَّ في هاوية الطبيعة ويصون نفسها ؟ في ساعة كتلك الساعة لا تنقذها الا معجزة سماوية. وقد وقعت هذه المعجزة . فان ابنة سيماغان (١) لجأت حينئذ الى اله المسيحيين . فانها تملَّصت من ذراعيَّ وجثت على الارض واخذت تبكي وتصلي الى امها والى ملكة العذارى (٢) فمنذ هذا الحين علمتُ مبلغ عظمة هذه الديانة التي تملأ صاحبها قوة ومسرّة وتكبح جماح شهواته واهوائه حتى في وسط غابة مقفرة في ظلام الليل البهيم حيث كل شيء يجعل سبيلها سهلاً . فما كان أجمل منظر أتالا الساذجة المتوحشة وهي امام جذع شجرة ممدود تبكي وتصلي من أجل حبيب وثني وتسأل الله العون له ولها على تلك الشدة . ما كان أجمل عينيها الشاخصتين في قمر السماء ووجنتيها الساطعتين تحت دموع الايمان والحب . حقاً ان منظرها كان سماوياً . وقد خُيل لي غير مرة وانا انظر اليها تبكي وتصلي انها لسماويتها تكاد تطير عن الارض وتنطلق نحو السماء . وظننتُ غير مرة ايضاً انني أرى الارواح التي يرسلها اله المسيحيين الى من يريد دعوته اليه هابطة نحوها على حبال نور القمر وانني اسمع حركاتها بين اغصان الشجر . فطارت نفسي شعاعاً لخوفي ان أتالا لا تعمر طويلاً

,,وقد اذرفت أتالا في صلاتها من الدموع وأظهرت من دلائل التألم والخوف

---

(١) يعني اتالا (٢) يعني العذراء مريم

من وجودي بجانبها ما كاد يحملني على تركها والعودة وحدي الى منازل الحملة لو لم اسمع في الغابة صراخاً وتهديداً بالموت . فالتفتُ فابصرتُ اربعة رجال مسرعين نحوي . وكانوا مرسَلين من قِبل الزعيم للتفتيش عني بعد ان شاع خبر فراري فانقضوا عليّ وقيدوني وعادوا بي . اما أتالا فقد استقبلتهم بعظمة الملكات فانها نظرت اليهم شزراً وقصدت اباها . فلم تظفر منه بما يخفف بلوائي بل زادوا في حراستي وشد وثاقي وحالوا بيني وبين حبيبتي فاقمتُ خمس ليالٍ لم أرها

,,وفي الليلة السادسة لاحت لنا بلدة ابالاشوكلا القائمة على نهر (شاتاأوش) وكانت غرضنا وغاية سفرنا . فلما قربنا منها زينوني بالزهر ودهنوا وجهي باللون الازرق والاحمر وعلقوا لؤلؤاً بانفي واذنيّ وجعلوا بين يدي شيشيكوه (١) — كل ذلك استعداداً للحرق

,,فدخلتُ الى المدينة مزيّناً هذه الزينة فكان الشعب يهتف و يصيح في طريقي . وكاد يُقضى عليّ في ذلك اليوم لو لم يحدث الحادث التالي

,, ذلك انه لم تكد الحملة تستقر في المدينة حتى نادى المنادي من قِبل الميكو(٢) يدعو الشعب الى اجتماع خاص للمناقشة في شأني . وسببه ان بعض المرسَلين المسيحيين كانوا قد حثوا الهنود على اتخاذ الاسرى عبيداً بدل احراقهم وذلك تخفيفاً لهذه الجناية . فانقسم الشعب فريقين فريق اصرّ على البقاء على عادات اجداده وفريق طاوع المرسلين . فلما رأى رئيس القبيلة اختلافهم في هذا الامر دعا مجلس شيوخهم الى الاجتماع للمناقشة والفصل فيه . وكان مكان المجلس في ارض منفردة قرب المدينة فاجتمع فيه خمسون من شيوخهم واوقدوا نار المجلس في وسطهم وقدم منجمهم وكاهنهم الاول يحيط به ثمانية من حراس هيكلهم

(١) آلة موسيقية عند الهنود (٢) رئيس القبيلة كلها

وهو مرتد ملابس ضافية الاذيال وعلى رأسه بوم محنط . فتقدّم الكاهن والقى بخوراً في النار وقدم ذبيحة للشمس . فكان لهذا المجلس الساذج وحوله البخور والشيوخ والجند والكهنة منظر مهيب . وكنتُ مقيداً واقفاً في الوسط . فلما فرغ الكاهن من الذبيحة شرع رئيس القبيلة يشرح لهم سبب هذا الاجتماع ثم القى في المجلس عقداً ازرق اللون ليكون شاهداً على مقاله . فنهض رجل من قبيلة (النسر) ودافع عن عادات الآباء والاجداد وسأل المجلس صيانتها وترك عادات البيض ثم ألقى عقداً أحمر اللون وجلس . فتلاه رجل من قبيلة أخرى وردّ عليه فدعا المجلس الى نبذ المضرّ من عادات الاجداد واتخاذ الاسرى عبيداً لحراسة الحقول بدل احراقهم . ولما جلس قامت قيامة المجلس فكأنّ زوبعة هائلة هبت بين رجاله . فأخذوا يتحاورون ويتناقشون كأنهم يتنازعون . ثم انجلى هذا النزاع عن تقرير حفظ عادات الاجداد واحراق الاسير بعد ان كاد المجلس ينحل على غير فائدة

„ الا انهم لم يتمكنوا من احراقي يومئذ لقرب (عيد الموتى) او (وليمة الارواح) وكان من عادتهم ان لا يقتلوا اسيرًا في الايام المخصصة بهذا العيد . فاسلموني الى حراس شديدي الرقابة . ولم أرَ أتالا في اثناء هذه الحوادث

„ ولما دنا يوم (وليمة الارواح) اخذت القبائل تفد على المدينة من كل حدب وصوب من مسافة ثلاثمائة فرسخ مربع . فانشأوا كوخاً طويلاً في مكان منفرد وفي يوم العيد جاءت كل قبيلة برفات اجدادها وهيأكل عظامهم وعلقوها بترتيب عيلةً عيلةً في مكان يدعونه (قاعة الاجداد المشتركة) . وقد هبت زوبعة شديدة في ذلك الحين فخيل للهنود ان الطبيعة تشاركهم في عيدهم . وبينا كانت اشجار الغابات تضطرب وتئن تحت الزوبعة في الخارج وشلالات الماء ترفع صوتها وتسرع في جريانها كان شيوخ القبائل في الداخل يعقدون المحالفات فيما بينهم ويستشهدون عليهم عظام اجدادهم

,, ثم شرعوا في الاحتفالات والالعاب الحزنية والركض ولعب الكرة · واخذت فتاتان تتنازعان قضيب صفصاف وقد اشتبكت ايديهما وأرجلهما وتقابلت أثديتهما الناهدة وانفاسهما الحارة وحين انتهى نزاعهما صفق لهما الحاضرون فتوردت وجناتهما(١) ثم شرع الكاهن والمنجم الاول في التعليم الديني · فاستغاث (بميشابو) روح (اله المياه وقص قصة حروب الارنب الكبير مع اله الشر (ماشيمانيتو) وكيف خلق الانسان الاول وامرأته الاولى المدعوة (اتاينسيك) وكيف هبطا من السماء لفقدهما طهارتهما · وكيف تخضبت الارض بعد سقوطهما بالدم الاخوي لقتل جوسكيكا الشرير اخاه الصالح تاهو يستـاورون · وكيف حدث الطوفان بأمر (الروح الاعظم) وكيف نجا (ماسو) على زورق مصنوع من قشور الاشجار وكيف ارسل غراباً لاكتشاف اليابسة (٢) وقص ايضاً قصة الجميلة (اندايا) وكيف أخرجت من عالم الارواح باناشيد زوجها الشجية

,, ثم شرعوا بعد هذه الالعاب والاحتفالات في دفن عظام أجدادهم · فقصدوا شجرة تين بري قديمة كانت على شاطئ نهر شاتاأوش وكان جدادهم قد اعتادوا إكرامها فحفروا تحتها حفرة واسعة ثم خرجوا بعظام اجدادهم من (قاعة الاجداد المشتركة) يقصدون تلك الحفرة في احتفال ونشيد · وكانت كل عيلة تحمل بضع عظام مقدسة · فلما بلغوا الحفرة القوا العظام في القبر وجعلوها فيه طبقات طبقات وفصلوا بين طبقة واخرى بجلود الدببة وكلاب الماء · ولما تراكمت العظام بعضها فوق بعض جعلوا التراب عليها وغرسوا فوقها شجرة

(١) احرار الوجنتين للانفعال أمر مألوف لدى فتيات المتوحشين وفتيانهم

(٢) هنا موضع نظر فان هذه القصص الهندية شبيهة بما ورد في التوراة عن خلق آدم وحواء وسقوطهما وقتل قايين هابيل وحدوث الطوفان ونجاة نوح في فلك · فاستدل المؤرخون بها على احد امرين · فاما ان اميركا كانت في الزمن القديم متصلة باحدى القارات فعبر اليها اناس اخذ اهلها عنهم هذه الروايات التي ترويها التوراة وبقيت محفوظة في تقاليدهم · او ان بعضهم دخل اميركا قبل كولومبس فاخذ اهلها عنه هذه الروايات

يدعونها (شجرة البكاء والرقاد)

وما فرغوا من هذا الاحتفال وانقضى العيد حتى ارتفع صراخهم يطلبون حرقي . وما اجدر الانسانية بالشفقة والرحمة يا بني . فان النساء انفسهن اللواتي كن يذرفن الدموع لدى ذكرهن موتي حرقاً اصبحن يطلبنه بشراسة وشدة ليتلذذن مع المتلذذين بمشاهدة انسان مثلهم يموت بعذاب اليم .

,, فساقوني الى غابة في شمال البلدة يدعونها (غابة الدم) لانهم يحتفلون فيها بقتل الاسرى . وكان في وسط الغابة مكان معد لذلك . فأخذوا يبنون حوله مقاعد لهم ليتفرجوا بمشاهدة موتي وعذابي . وكان الموكلون بحرقي يقيمون لي المحرقة وكل واحد منهم يستعد لتعذيبي بصنف من العذاب . فبعضهم نوى ان يسلخ جلد رأسي وبعضهم نوى سمل عيني بفؤوس محماة . فوقفت وسط الجمع وصحت

,, يا رجال موسكوكولج . اني احتقركم ولا اخشاكم . وانني اشد كراهة لكم مني للنساء . ان ابي اوتاليسي قد شرب الماء بجماجم أشهر ابطالكم . فلا تطمعوا في ان يبدر الي تنهد حزن او كلمة رجاء ,,

,, فلما فرغت من كلامي هذا انبرى احد رفاقهم وقد اغاظته جرأتي فاوتر قوسه ورشقني بسهم فاصابني سهمه في ذراعي فادماها . فالتفت اليه وقلت ,,شكراً لك ايها الاخ ,,

,, ولكن الموكلين بحرقي لم يفرغوا قبل غروب الشمس من إعداد المحرقة وترتيب المكان فاستفتوا المنجم والكاهن الاول في حرقي بعد الغروب فافتاه بتركه الى الغد خوفاً من ازعاج ارواح الليل . فتأخر اعدامي الى اليوم التالي

,,على ان الشعب لم يبعد عن (غابة الدم) بل رقد فيها تلك الليلة ليكون في الغد قريباً من المحرقة . فشرعوا في بسط الطعام والرقص واضرام الحرائق ليستضيئوا بها . اما انا فساقوني الى جانب والقوني على ظهري الى الارض وشدوا عنقي ويدي وقدمي الى اوتاد غرسوها في التراب ورقد جندي على كل

حبل مشدود الى وتد حتى اذا تحركتُ في الليل وطلبتُ النهوض تنبّه الجنود الراقدون على الحبال

,, ولما انقضى هزيع من الليل سكنت الجلبة شيئاً فشيئاً وأخذت الحرائق تنطفئ وخفتت اصوات اللاعبين والمنشدين وحلّت محلها اصوات الرياح تداعب اغصان الاشجار . وكان الهلال يسبح في الغيوم في كبد السما وعينيّ شاخصتان نحوه اتساءل ماذا يقع لي في الغد وهل اراه مرة أُخرى . وكنتُ اتأمل في حالي ومصيري والعن اتالا التي تركتني مع انني آثرت الموت حرقاً على تركها والنجاة بنفسي وحدي . وبتّ بعد جحودها هذا الجميل أرى انها وحش في صورة امرأة . ولكني مع ذلك كنتُ اشعر باني احبها حباً يقرب من العبادة واني اموت مسروراً من أجلها

,, ان في اللذات العظمى يا بنيّ شيئاً يثيرنا وينبهنا كانه يحثنا على الاستمرار في التمتع بها . ولكن في الآلام العظمى شيئاً ثقيلاً يضغط علينا وينيمنا . ولا عجب فان الجفون التي تتعبها الدموع تميل بحكم الطبع الى الانطباق وهذا من مراحم العناية السماوية تظهر فينا حتى في ابان مصائبنا وآلامنا . فاطعت هوى نفسي ورقدت رقاداً ثقيلا كالرقاد الذي يتمتع به الاشقياء احياناً . وبينا كنت مستغرقاً في النوم رأيت في الحلم ان قيودي تحل واحسست بلذة التفلت منها . وقد اشتد عليّ هذا الاحساس وهذه اللذة حتى فتحت جفني . فماذا ابصرت ؟ ابصرت وجهاً ملثماً ابيض محنياً عليّ ويدين تشتغلان بحل وثاقي بهدوء . فكنت اصيح فوضع الشبح يده على فمي لاسكاتي فعرفت يد اتالا . وكانت قد حلت جميع الحبال الا حبلاً واحداً كان احد الجنود راقداً عليه بكل جسمه ويُخشى ان يستيقظ اذا مُس الحبل . فمدت اتالا يدها الى ذلك الحبل فانتبه الجندي واستوى جالساً وهو بين اليقظة والمنام فانتصبت اتالا امامه جامدة فاسرع الجندي الى الرقاد ثانية لظنه انها (روح الخرائب) ظهرت له واطبق جفنيه وصار يستغيث بالروح التي تحميه ثم نام . ولما حلت اتالا الحبل نهضتُ وتبعتُ مطلقتي من

قيودي فمدت الي قوساً امسكتُ بطرفها وامسكتْ هي بالطرف الآخر وقادتني خارج المكان . ولكن الخطر كان يتهددنا من كل جانب . فتارة كدنا نصطدم بجنود نائمين وطوراً كان يلقانا الحراس فتخاطبهم اتالا بصوت غير صوتها الاعتيادي فيتركوننا نمر في سبيلنا . وكنا نسمع في طريقنا بكاء الاطفال ونباح الكلاب علينا فترتعد فرائصنـا . وما كدنا نخرج من تلك الدائرة الهائلة وتتنفس الصعداء حتى دوت في الغابة اصوات الجنود لانتباههم الى فراري فاسرعنا في الهرب ورأيناهم وراءنا يطوفون الغابة بالمشاعل ويفتشون فيها .

,, ولما طلع علينا الصباح كنا قد اجتزنا مسافة بعيدة ولم يلحق بنا احد فكانت سعادتي ولذتي مضاعفة لانني انطلقت من اسري واصبحت منفرداً باتالا في وسط البر ولا رقيب علينا . فانطرحت على قدمي مطلقتي من اسري التي وهبتني نفسها ولم اجد كلاماً اعرب لها فيه عن عواطفي فقلت لها ,, ان الرجال (شيء لا يُذكر) ولكن اذا زارتهم الارواح اصبحوا (لا شيء) وانتِ (روح سماوية) زارتني ولا استطيع الكلام امامك ''

,, فابتسمت اتالا ومدت اليَّ يدها وقالت (تبعتك لانك ابيت الفرار وحدك وفي الليلة الماضية رشوت الكاهن لتأخير حرقك الى الغد واسكرتُ بروح النار (١) الموكلين بحراستك . ولقد جازفت بحياتي من اجلك لانك جازفت بحياتك من اجلي'' ثم قالت بلهجة اخافتني ,, وبذلك انكرت ذاتي ايها الفتى الوثني كما انكرت ذاتك فالانكار بيننا متبادل ''

,, وكانت اتالا تبكي في اثناء كلامها بكاء جرح قلبي . ثم القت اليَّ السلاح الذي تزودته لحاجتنا اليه في الطريق واقبلت عليَّ تضمد جرح ذراعي فتناولت ورقة نبات وغسلتها بدموعها والصقتها على الجرح فابتسمت وقلت ,, هذا ترياق تنشرينه على جرحي'' فاجابت ,, انني اخشى ان يكون سماً '' ثم مزقت قطعة نسيج من لباسها ولفت ذراعي بها

---

(١) شراب مسكر عند الهنود

,, وكان السبب في نجاتنا من ايدي الهنود الذين كانوا يطلبوننا اننا جعلنا وجهتنا (النجم الثابت)(١) اما الهنود فذهبوا يطلبوننا على ما اظن في جهة الغرب لظنهم انني اقصد العودة الى وطني في مسيسيبي ٠

,, ولم يكد يهدأ روعنا ونثق بنجاتنا حتى رأينا اننا لم نستفد شيئاً من هذه النجاة ٠ فان القفار الهائلة كانت تحيط بنا من كل جانب وتنبسط في الجهات الاربع الى مسافات لا يدرك الطرف آخرها ونحن وحيدان فريدان ضيفان في وسطها ٠ ولم يكن لاحدنا خبرة في الطرق والغابات فاذا سرنا على غير هدى تهنا في تيه لا آخر له وكانت الآخرة شراً من الاولى

,, وكنا نتسلى في الطريق بمداعبة احدنا الآخر فاخذت اتالا تصنع لي لباساً من الياف الاشجار لانني كنت اكون عارياً ٠ واخذتُ ازينها بالازهار الجميلة التي نجدها في طريقنا فكنت اصنع لها منها اكاليل اكللها بها ثم اتمتع بمشاهدة جمالها الرائع تحت تلك الازهار ٠ وحين كان يعترض طريقنا جدول كنا نعبره سباحةً ويدها في السباحة مستندة الى كتفي فتشبه اوزتين تعبران الماء ٠ وفي ايام الحرّ الشديد كنا نلجأ الى ظل اشجار الارز للاستراحة تحتها ٠ ومعلوم ان جميع اشجار فلوريده واخص منها الارز والسنديان الاخضر انما تتدلى من اغصانها الياف بيضاء الى الارض ٠ فاذا جن الظلام ولاحت لك احدى هذه الاشجار على اشعة نور القمر الضئيلة حسبتها شيئاً هائلا يجر وراءه اردية بيضاء ٠ وليس منظرها في النهار باقل جمالا منه في الليل لان الوفاً من الفراش والذباب الساطعة والحشرات المختلفة الملونة والعصافير الصغيرة تقع على تلك الالياف المدلاة فتحسبها بساطاً جميلا مصنوعاً من الصوف ومطرزاً باليد تطريزاً يرسم فيه صور تلك الحيوانات الجميلة ٠ وحين كنا نستريح في جوف هذا الفندق الطبيعي العظيم الذي صنعه (الروح الاعظم) لسكان البر وتهب ريح عاتية فتهز هذا القصر الهوائي القائم على اغصانه البيضاء المدلاة فيترنح من هزها بما عليه من

(١) نجم الشمال

حشرات وحيوانات وترتفع من دهاليزه ومما حوله من الاشجار تنفسات الكائنات الحية والجامدة — كنت أُراني في عجيبة من عجائب الطبيعة لا تضاهيها عجائب العالم القديم الصناعية

,, وكنا في كل مساء نبني كوخاً صغيراً للمبيت فيه ونمدّ غذاءنا من نبات البر وبراعم الشجر وتفاح ايار (مايو) والجوز الاسود والطيور التي نصطادها بنبالنا في الطريق كديك الحبش الوحشي وغيره · فكنت اوقد ناراً واعلق الطائر فوقها واترك للريح عناية تقليبه وتحريكه عليها لينضج · واحياناً اذا كنا بعيدين من الماء كنت اطلب نباتاً اعرفه وهو ذو زهر مستطيل كالاسطوانة المقعرة ويتضمن دوماً في جوفه مقدار كأس من ندى السماء النقي · فكنا نشكر العناية السماوية لوضعها في زهرة تنبت في وسط القفار المحرقة والمستنقعات القذرة ماء يروي غليل الملهـ فركما تضع الامل في نفس كل يائس وكما تغرس الفضيلة في نفس الشقي المسكين

,, وكنت كلما طال مسيرنا وسفرنا احس بانني كنت مخدوعاً في اعتقادي بهدوء اتالا وسكينتها · فاننا كلما قطعنا مرحلة كانت اتالا تزداد حزناً وانقباضاً · والذي كان يخيفني منها خاصة سرٌ كانت تكتمه عني · فانني كنت اباغتها احياناً وهي شاخصة تحوي بهوى وغرام ثم ترفع نظرها الى السماء بحزن شديد · وكلما كنت اظن انني ازددت تملكاً لقلبها كنت اعود فارى انني ما زلت حيثما كنت · ففي ذات يوم وقد رأت كآبتي لكآبتها قالت لي ,, انني احبك حبي لظل الغابة في حرّ النهار واراك جيلاً كهذا القفر وما فيه من خضرة وزهر ونسيم عليل يشرح الصدر · وانني ارتعد ارتعاداً اذا دنوت مني · واذا مست يدي يدك ظننت اني اكاد اموت · ومنذ يومين كان رأسك مسنداً الى صدري فهبت الريح ونسفت شعرك الى وجهي فلما مسني شعرك ظننت ان ارواح الغيب تمسني · كل هذا يا حبيبي شكتاس المسكين حقيقي ولكني لا اكون زوجتك ابداً ''

,, فكلام اتالا هذا وامتزاج حبها بالدين ودينها بالحب وطهارة اخلاقها وحنو قلبها وإباؤها وشدة احساسها وسمو نفسها — كل هذه كانت تجعلها في نظري

كأننا لا نُدركُ حقيقته . فكنت امتثل لارادتها واسكت . و بعد انقضاء ١٨ ليلة على فرارنا بلغنا سلسلة جبال اليغاني فاعترضنا احد فروع نهر تنسي الذي يصب في نهر اوهايو . فاشارت علي اتالا ان اصنع زورقاً من قشور الاشجار وأصل بينها بجذور شجر الصنوبر اخيطها بها واطليها بصمغ شجر الخوخ . ففعلت وركبنا الزورق واسلمناه الى تيار النهر يجري به في انحداره . فاجتزنا الى يسارنا قرية (ستيكوي) الهندية وقبورها القائمة بشكل هرمي وخرائبها الدارسة . ثم اجتزنا الى اليمين وادي (كاو) ولاحت لنا من ورائه اكواخ (جور) القائمة في جبل مسمى بهذا الاسم . وكانت المياه التي تحملنا تجري بين آكام مرتفعة يلوح من ورائها قرص الشمس الآخذة في المغيب . وكان حولنا سكون مطلق لانه لم يكن في طريقنا انسان يكدر صفوه الا صياداً هندياً رأيناه في قمة الجبل واقفاً يستند الى قوسه وهو جامد في مكانه كأنه صنم اقيم هناك اكراماً لارواح القفر . وكنت واتالا ساكتين والزورق يجري بنا فكان سكوتنا وسكوت الطبيعة حولنا موتّراً جداً . ولكن اتالا صرخت بغتة في ذلك الحين صراخاً شق الفضاء بنشيد شجي تهتز فيه امواج صوتها الرخيم اهتزازاً يُطرب الجماد . فاخذت تغني وتندب وطنها الذي فارقته وهذا بعض غنائها

„ ما اسعد الذين لم يروا دخان اكواخ الاجانب . ما اسعد الذين لم يجلسوا الى مائدة غير موائد آبائهم واجدادهم

„ بعد سفر شاق طويل يجلس المسافر الغريب للراحة بحزن وكآبة . فيرى حوله منازل الناس ولا يرى لنفسه مكاناً يضع فيه رأسه . فيقصد كوخاً ويطرق بابه ويلقي قوسه الى جانب ويسأل صاحب الكوخ الضيافة . فيشير اليه صاحب الكوخ اشارة فيسترد الغريب قوسه ويعود خائباً من حيث اتى

„ ما اسعد الذين لم يروا دخان اكواخ الاجانب . ما اسعد الذين لم يجلسوا الى مائدة غير موائد آبائهم واجدادهم "

,, هذا كان غناء اتالا . فاثر هذا الغناء في نفسي ونفسها فاذرفنا الدموع . وبعد فراغها منه عاد كل شيء الى السكوت المطلق فلم نكن نسمع شيئاً سوى صوت زورقنا يشق الماء الا صدى غناء اتالا الذي كان يتردد بين الآكام وفي جوف الاحراش كأنها مأهولة بارواح عشاق كانوا اشقياء مثلنا فقاموا يجاوبوننا

,, وكان هذا الانفراد في البر ومصائبنا ووجودنا كل الوقت مجتمعين معاً مما يزيد هوى نفسينا ويذكي نار حبنا . فاخذت احس بان قوى اتالا شرعت تنحط واهواءها التي اضنت جسمها اضحت تضعف فضيلتها . فكانت اتالا تكثر من الصلاة لامها تسكيناً لغضبها عليها لظنها انها غضبى . وكانت لاضطرابها تسألني تارة هل اسمع صوتاً يشكو وطوراً هل أرى لهيباً يرتفع من الارض ولم يسمع هناك صوت يشكو ولم يكن لهيب . اما انا فقد كنت اظن انه قضي عليَّ في تلك القفار بالهلاك وعدم الخروج منها فكنت مراراً وقد اعياني التعب والنوم وعذبتني نار الهوى والرغبة — ان اقبض على زوجتي واضمها بين ذراعي واشفي غليل نفسي . وقد سألتها غير مرة ان تنحدر ونبني لنا كوخاً صغيراً على الشاطئ وندفن نفسينا في حفرة تحته فكانت تأبى وتقول احفظ نفسك لقومك يا ابن اوتاليسي فان الانسان لوطنه وقومه لا لنفسه . وكنا حينئذ من الضيق والعذاب في حالة ما عليها من مزيد لولا ان حدث حادث زاد في شقائنا وعذابنا

,, وكان ذلك في الشمس السابعة والثلاثين بعد فرارنا . وكان قد بدأ (قمر النار) (١) وكل شيء في السماء يدل على انقلاب الجو . فلما هبط الظلام سمعت من جوف الغابة بين اشجارها القديمة كتقدم الزمان صعقات الصاعقة ورأيت برقها الخاطف . ثم شهدت النهر يسرع في الجريان والريح تعصف فاسرعت واتالا وانحدرنا من الزورق بخوف فيضان النهر والتجأنا الى

(١) شهر تموز « يوليو »

اشجار الغابة . وكان النهر قد فاض ولم نحسس به فاصبح الشاطئ كمستنقع متصل . وهاجتنا بعد نزولنا جيوش الحشرات المختلفة والخفاش فكادت تعمينا . وكنا نرى الافاعي ذات الاجراس بارزة من كل جانب والذئاب والدببة والنمورة تتزاحم هناك لانها انحدرت من الجبال وتركت السهول للالتجاء الى الغابة . وكانت الغابة قد خيم عليها الظلام للضباب الذي تكاثف فيها وكانت الريح تهب من الغرب وتطرد اليها الضباب البعيد منها فتزيد ظلامها ظلاماً . وكانت السماء تنفتح في الظلام حيناً بعد حين اذ تشقها الصاعقة وتنير الارض تحتها فتكشف القفار والبراري الى ما لا يُدرك الطرف آخره . ثم سُمع في الغابة صوت الصاعقة ثانية ونُظر الدخان مرتفعاً منها فعلمنا ان الصاعقة اضرمت النار فيها . ثم اخذت هذه النار تمتد والصواعق تنقض من كل جهة واعمدة اللهيب والشرر والدخان والضباب تتصاعد في الجو ممتزجة امتزاجاً هائلاً بين زئير الوحوش الخائفة والرياح العاصفة وتحطم الاشجار وصوت النار وتردد اصداء هذه الاصوات كلها في الجبال والقفار

,, ان الروح الاعظم يا بني يعلم انني لم افكر في نفسي في ذلك الحين وانما كان فكري في اتالا . فاخذتها الى ظل شجرة واجلستها على ركبتيَّ وشرعتُ في تدفئة قدميها العاريتين بيديَّ وتسكين بالها . وبينا كنتُ أُعنى بها احسستُ بدمعة سقطت من عينها على صدري . فصحتُ (يا زوبعة النفس أهذه قطرة من قطرك) ثم قبلتها بكل ما في نفسي من القوة وقلت ,, أتالا يا حبيبتي . انني أرى انك تكتمينني أمراً . فافتحي لي خبايا قلبك وخاطبيني مخاطبتك لاخٍ لكِ . انني لا أعلم شيئاً ألذّ من ان يفتح الانسان قلبه لصديق مخلص ويشرح له مكنوناته . فقصي عليَّ قصة سرك الذي تكتمينه عني . ما لكِ يشتد بكاؤك . هل تبكين وطنك؟ ''

,, فاجابت ,, كيف ابكي وطني يا ابن الناس وابي ليس من هذه البلاد ''

,, فدهشتُ وقلت (لم يكن ابوكِ من هذه البلاد ؟ فمن اي بلد هو ؟ تكلمي واخبريني)

,, فقالت اناللا

ــ قبل ان تهدي امي الى زوجها سياغان ٣٠ عبداً و٢٠ جاموساً و١٠٠ كيلة من زيت السنديان و٥٠ جلداً من جلود كلب الماء وغيرها من النفائس ـ كانت قد عرفتْ رجلاً من البيض ٠ فلما رأت جدتي ميلها الى هذا الرجل رشقتها بالماء في وجهها واكرهتها على الاقتران بسياغان الذي كان يشبه الملوك ٠ فلما اجتمعت امي بسياغان بعد الزواج قالت له : ان جوفي قد حمل فاقتلني ٠ فاجابها سياغان فليحفظني الروح الاعظم من فعل اثيم كهذا الفعل ٠ لا اقتلك ولا اجدع انفك ولا اقطع اذنيكِ لانك خاطبتني بالخلاص ولم تدنسي فراشي ٠ اذهبي وضعي ثمرة جوفك فاعتبرها من ثماري ٠ ولكني لا ازوركِ الا بعد حلول القمر الثالث عشر ــ وفي هذا الحين شققتُ جوف امي واخذت انمو بكبرياء الاسبانيين والهنود ٠ فنصّرتني امي وجعلتني مسيحية وذلك لاشترك في عبادة الهِ ابي واله امي ٠ ثم اصيبت امي بداء الحب لفراقها الرجل الابيض فماتت وانزلت الى المغارة الصغيرة المفروشة بالجلود والتي لا يخرج منها كل من ينزل اليها)

,, فادهشتني هذه القصة وسألتُ اناللا (فمن هو اذاً ابوكِ ايتها اليتيمة المسكينة ؟ وما اسمه في هذه الارض ؟ وأي اسم كان له في عالم الارواح ؟)

فاجابتني ,, لم اغسل قط قدمي أبي ولم أره ٠ وانما اعلم انه يعيش الآن في مدينة سنت اوغستين مع اخته وكان مخلصاً في حب امي وقد استمرّ يحبها ٠ وكان اسمه بين الملائكة (فيليب) والناس يسمونه (لو بيز)

,, فلما سمعتُ هذه الكلمة صحتُ صيحةً دوت لها الغابة ٠ ثم ضممتُ اناللا الى صدري وصحتُ باكياً (يا اختي ٠ يا ابنة لو بيز الذي انقذني واحسن اليّ)

„ فدهشت اتالا وخافت وسألتني عن سبب اضطرابي هذا . ولكنها حين علمت ان لو بيز الذي كان اباها هو الذي انقذني وحماني وتبناني في سنت اوغستين وقد تركته لسئامتي عيش المدن ورغبتي في العودة الى الخلا" — كادت تطير فرحاً وسروراً واضطربت كاضطرابي . فكان كثيراً علينا هذا السرور الجديد الذي ورد يزيد في حبنا ويمزج نفسينا مزجاً جديداً . فشعرت في تلك الساعة ان كل مقاومة من اتالا اصبحت عبثاً . وتحققت ارتخاء عزمها من نظري اليها ورؤيتها تضع يدها بضعف وانكسار على صدرها كأنها تريد منع قلبها من الفرار منها . قبضت على رأسها وانا كالمجنون هوى وغراماً وطوقت عنقها بذراعي وكرعت كؤوس الهوى والسحر من انفاسها وشفتيها حتى كدت أفقد صوابي . ثم ضممتها وهي شاخصة في السما" على نور البرق الذي كان يتألق حولنا والروح الاعظم الازلي ينظر الينا ويشهد علينا . وتمثل لي حينئذ وهي بين ذراعي ان تلك الغابة الواسعة المائجة كالنهر الثائر انما أعدت لتكون فراشاً لزواجنا وان الاشجار التي ترقص فيها والصواعق التي تنقض حولها والحرائق المضطرمة في اغصانها واصوات الحيوانات المرتفعة من جهاتها الاربع — انما هي حفلة رائعة اقيمت لاقتراننا . فيا غابة الدهر المقفرا" . يا منتدى الطبيعة الوحشي العظيم . يا ارضاً وسما" حسبتهما فراشاً وغطا" لهنائي وسعادتي . لماذا خدعتني ولم تقدري على ان تصوني في احشائك السرية المضطربة سعادة رجل وامرأة

„ وكادت اتالا تترك المقاومة وتستسلم الي وكدت ابلغ منها منى نفسي واصيب هنائي واذا بصاعقة قد انقضت بجانبنا فحطمت شجرة قريبة مناوملات الغابة ناراً ونوراً . فاجفلنا ونهضنا نركن الى الفرار من النار . ولكن يا للدهشة فانه ما سكن صوت الصاعقة وذهب أثرها حتى سمعنا صوت جرس يقرع ونباح كلب بعيد . ثم دنا النباح واشتد وبعد حين ابصرنا امامنا شيخاً منفرداً

يحمل مصباحاً صغيراً وهو يقتفي أثر الكاب في ظلام الغابة • فلما رآنا الشيخ صاح ,, مباركٌ اسم الله • لقد مرّ عليّ زمن طويل وانا افتش عنكما فان كلبي شمّ ريحكما منذ بدء الزوبعة وأخذ ينبح ويجري امامي حتى بلغ بي الى هنا وهداني اليكما • لله ما اصغر سنهما • تعاليا تعاليا يا ولديّ فانكما تعذبتما ولا شك • هذا جلد دب للفتاة وهذه جرعة من النبيذ للفتى من حقيبتي • مباركٌ اسم الرب الذي انقذكما وهداني اليكما ''

,, وكانت انالا قد عرفت من منظر الشيخ انه من المرسلين المسيحيين فانطرحت جاثية امامه وقالت (انني مسيحية يا أبتاه ولا شك في ان الله ارسلك لانقاذي •) فاجاب الشيخ وقد اخذ يدها وانهضها ,, ان مستقر بعثتنا يابنية قريب من هنا وقد اعتدنا في الزوابع قرع الجرس لدعوة الغرباء الينا ودرّبنا كلبنا على ان يكتشف المسافرين التائهين كما يفعل رهبان جبال الالب ولبنان بكلابهم '' وكنتُ عاجزاً عن فهم كلام الشيخ لانني رأيتُ ان هذه الرحمة والشفقة فوق طوق البشر • وقد تأملتُ فيه على نور مصباحه الضئيل فلاحت لي لحيته الطويلة ورأيت شعره مبتلاً بماء المطر ووجهه ويديه وقدميه مخضبة بالدم من وخز الاشواك • فقلت له ,, يا ايها الشيخ الجليل ما هذا القلب الذي لك أما تخشى الصاعقة '' فقال الشيخ ,, اخشى ؟ وماذا اخشى • ايليق بي ان اخشى شيئاً اذا رأيتُ بشراً في خطر وكان في امكاني اعانتهم • انني اكون حينئذ غير اهل لبس هذا الثوب '' فقلتُ له ,, ولكن أتعلم انني لستُ بمسيحي '' فاجاب الشيخ ,, هل سألتك عن دينك ايها الفتى لتقول لي هذا القول ؟ لا فرق عندي بين المسيحي وغير المسيحي • فان المسيح مات من أجل اليهود وغير اليهود وكان يعدّ جميع البشر اخواناً وأقرباء • على ان ما افعله الآن من اجلك ليس شيئاً واذا كان شيئاً فالفضل فيه لله صاحب الفضل الاعظم وما

نحن الا وسائل خشنة لانفاذ ارادته "

,, فاثر في نفسي هذا الكلام واجرى دموعي · فاردف الشيخ بقوله (ياولديَّ · انني ارعى بين هذه الغابات رعية صغيرة ومغارتي في هذا الجبل قريبة من هنا · فتعاليا واتبعاني فانكما ان لم تجدا لديّ كل وسائل الراحة والدفاء والسعة فانكما تجدان على الاقل ملجأ لكما · ومع ذلك فهذا كثيرٌ ويجب حمد الله من اجله لان كثيرين من البشر لا ملجأ لهم)

الزراعة

الفصل الثالث

اول قران بين الارض والانسان في ظلمات اميركا الاولى * التمدين بالزرع والدين * ولكن بدين المخلصين الصادقين

,, في البشر صُلاّح مستريحو الضمائر والخواطر لا تستطيع الدنو منهم الا وتسري اليك سكينتهم وراحتهم · وهكذا كان حالي مع هذا الشيخ · فانني ما سمعته يتكلم حتى اخذتْ اهوائي في السكينة بل خُيّل لي ان الطبيعة نفسها اخذت تسكن لسماعها صوته والزوبعة شرعت تهدأ · فخرجنا من الغابة يتقدمنا الكاتب وهو يحمل المصباح مطفأً ومعلقاً بطرف عصا والشيخ يتبعه · وكنت وانالا نسير وراء الشيخ والشيخ يلتفت من حين الى حين لبرانا و ينظر الينا بعين ملؤها الشفقة والحنان · وكان يتوكأ في سيره على عصا بيضاء في يده وفي عنقه كتاب معلق · وكانت تلوح على وجهه لوائح ميتة هادئة فتدلُّ على موت اهوائهوشهواته · وغضون جبينه الجميلة كانت تُظهر ان تلك الاهواء قد دُفنت في نفسه دفناً ابديًا · وكان طويل القامة نحيفها اصفر الوجه · وكان يُدعى "الاب (اوبْرِه)

,, فبعد مسيرنا في الجبل نصف ساعة في طريق محفوف بالخطر بلغنا الى مغارة الشيخ وكانت منقورة في الجبل · فوجدناها مفروشة باوراق الشجر ولم نرَ فيها غير اناء لاستقاء الماء وبضعة اوانٍ من الخشب وافعى اهليةوحجراً يستعمل كمائدة وعليه صليب منصوب وكتاب المسيحيين

,, فارقد الشيخ ناراً من الحطب والنبات الجاف ثم طحن شيئاًمن الذره بين حجرين وصنع من دقيقها قرصاً ووضعه على النار حتى نضج وصار لونه ذهبياً فقدمه الينا ووضع معه امامنا اناء فيه زبدة الجوز · وبعد ان تناولنا الطعام خرج بنا الى مدخل المغارة لان الزوبعة كانت قد هدأت · فرأينا من أعلى الجبل ان حرشاً من الصنوبر اقتلته الريح والقت اشجاره في النهر والحرائق التي اضرمتها الصواعق في الغابة لا تزال نارها تسطع ومياه النهر تجري مضطربة لان بقايا الزوبعة كانت تعترضها — لجذوع أشجار ورمم حيوانات واسماك ميتة كانت بطونها البيضاء تسطع على وجه الماء

,, فجلسنا هناك واخذت اتالا تقص على الشيخ قصتنا · فبكى الشيخ لما وقع لنا وقال (اذا لم يكن لكما ملجأ افضل من هذا الملجأ يا ولديَّ فانني اقترح عليكما الدخول في رعيتي التي نصّرتها وجمعتها في قرية بجانبي هنا وساعلّم شكتاس التعليم المسيحي ثم اجعله يا بنية زوجاً لكِ

,, فجثوتُ احمد الشيخ لفضله وبكيتُ سروراً وفرحاً · اما اتالا فامتُقعت وسكتت · فمد الشيخ يده وانهضني فنظرتُ فرأيت بعض اصابع يديه مقطوعة · فادركت اتالا السبب وصاحت (ما اشد توحشهم) فابتسم الشيخ وقال

— يا بنية لا تسخطي على اولئك الهنود الوثنيين الذين فعلوا بي هذه الفعلة · فانهم مساكين عميت بصائرهم وسينيرها الله · وانني احبهم حباً يعدل العذاب الذي عذبوني به · لقد مرّت عليَّ ثلاثون سنة وانا مقيم في هذا المكان ولما

قدمتُ اليه لم اجد فيه الا عيالاً رُحّل اخلاقها وحشية ومعيشتها شقية · اما الآن فهم يعيشون في رغد وهناء في قرية قريبة مني · ولم اساكنهم لخوفي ان يزعجهم وجودي بينهم كرقيب عليهم · وقد دربتُ هؤلاء السذج في طريق الخلاص وعلمتهم فنّ المعيشة وواجبات الحياة ولكنني لم أغالِ في هذا التعليم وهذا التدريب بل تركتُ لهم سذاجتهم التي فيها تمام سعادتهم · وانا الآن اعيش في هذه الوحدة العظمى استعدّ للموت واحمد الله)

,, ثم عدنا الى المغارة ففرش الشيخ الراهب لاتالا فراشاً من النبات الجاف · وكنتُ قد بتُّ أرى في وجه اتالا وعينيها وحركاتها شيئاً لا يُدرك ويدل على اضطرابها وحيرتها وحزنها · وكم من مرة رأيتها قد همّت ان تخاطب الراهب الشيخ في أمر تريد اطلاعه عليه ثم تسكت كأنّ هناك شيئاً يثنيها عنه · ولم اكُ اعلم ما هذا الشيء أهو حضوري أم حياؤها ام معرفتها ان كلامها لا فائدة فيه · وقد احسستُ في الليل بانها نهضت من فراشها وخرجت تطلب الشيخ ولكنها لم تجده لانه كان قد ترك لها فراشه وخرج الى عرض البرّ يتمتع بمشاهدة الارض والسماء في الظلام · وقد اخبرني غير مرة انه لا يلذ له شيء كهذا في اكثر الليالي · فعادت اتالا الى فراشها وانطرحت فيه · على انني وا أسفاه لم أرَ في جميع حركاتها هذه الا دليلاً على تعبها واضطرابها اضطراباً وقتياً

,, وفي الصباح انتبهتُ على تغريد الطيور في اشجار الغار والا كاسيا التي كانت تحيط بالمغارة فخرجتُ فوجدت الراهب الشيخ يستريح على جذع شجرة حطمها الزمان · فاقترح عليّ مرافقته الى القرية التي تقيم فيها رعيته ريثما تستريح اتالا في فراشها وتنتبه من نومها · فانحدرنا من الجبل نقصد القرية

,, فمررنا في طريقنا باشجار من السنديان عليها كتابات غريبة نقشها الراهب بيده فسألته عنها فاخبرني انها ابيات من الشعر لهوميروس وسليمان ·

فرأيتُ بين ذينك الشيخين المتناهيين في القدم والشيخ الذي كان امامي كأنه قطعة من الزمان نسبةً هي نسبة الحكمة والحنكة والجلال . ثم وصلنا الى وادٍ فرأيتُ فيه جسراً طبيعياً جيلاً كجسر فرجينيا المشهور . فمررنا على هذا الجسر فأدى بنا الى تحفة اخرى وهي مدفن رعيّة الراهب . وكان لكل عيلة حصة من ارض هذا المدفن وكأنّ كلّ حصة حرشٌ لعناية اصحابها بغرس الاشجار والنبات فيها . وكان بين جميع الحصص نهر يجري ويدعونه (نهر السلام) . ثم خرجنا من المدفن عن طريق غابة مبسوطة في جانبه الغربي وفيها الطيور تعشش وتغرد كأنها تحتفل بالموتى المدفونين في ذلك المدفن احتفالياً ابدياً . وما خرجنا من هذا المدفن حتى بدت لنا قرية رعية الراهب وكانت قائمة على شاطئ بحيرة في سهل انتشرت فيه الازهار . وكان الطريق اليها مفروساً بالسنديان الاخضر وورد البرّ ككثير من الطرق المؤدية الى الجبال بين فلوريدا وكنتكي . فلما لمح الهنود شيخهم وراهبهم مقبلاً تركوا اعمالهم واسرعوا اليه من كل صوب . فكان بعضهم يلثم يديه وبعضهم يلمس ثوبه وبعضهم يساعده في سيره . ووفد النساء باولادهن يحملنهم بين ايديهن ليرينهم رجل الله . اما الراهب الشيخ فكان يذرف دمع الابتهاج ويسأل كل واحد منهم عن عمله وحقله وحاصلاته ومنزله واولاده وينصح لبعضهم ويلوم آخرين ويبارك الجميع . وما زلنا سائرين والهنود حولنا حتى بلغنا صليباً كبيراً مغروساً في الطريق . فوقف الراهب الشيخ وقال (يا ابنائي . قد انضمّ الينا اليوم أخوان وفضلاً عن هذا أرى ان الزوبعة لم تتلف مزروعاتكم أمس . فعلينا حمد الله لهاتين النعمتين . هلموا نقدم لله الذبيحة المقدسة

„ ثم تناول الراهب الآنية المقدسة من صندوق بجانب الصليب واتشح بوشاح الكهنوت وكان مصنوعاً من الياف شجر التوت وأعدّ المذبح على صخرة

وجيء بالماء من شلال قريب وقطف عنقود عنب ليقوم مقام الخمر وجثا الجميع فابتدأ السر

,, وكانت السماء قد اشتعلت في جهة المشرق وراء الجبال الشامخة وشرع قرص الشمس في الظهور. فاول شعاع صدر عنها اصاب كأس القربان التي كان الراهب الشيخ يرفعها في يده في الهواء في ذلك الحين. فيا لجمال الديانة الساذجة. يا لقداس كاهنه شيخ معتزل مخلص ومذبحه صخرة وكنيسته القفر الواسع وشاهدوه هنود متوحشون سذج. كلا انني لا اشك في ان السر الاعظم قد تم حين جثونا. وان الله نزل حينئذ الى الارض بيننا. ذلك لانني شعرت بنزوله في قلبي

,, وبعد هذه الصلاة دخلنا القرية فوجدت فيها العيش الطبيعي آخذاً في الاقتران بالعيش الاجتماعي. فرأيت الاحراش في القفار تقطع وتحرق والموكلون بتقسيمها يقسمونها ويوزعونها على الزراع فيجري هؤلاء المحراث فيها فتصبح الغابة المظلمة حقلاً خصيباً باسماً بالزهر ويصير مكمن الوحوش الضارية كوخاً آمناً تعيش فيه عيلة مطمئنة راضية ويتنازل العصفور عن عشه للانسان. فجلت بين تلك الحقول وتذكار اتالا يملأ نفسي مسرة لانني كنت قد عزمت على ان اصرف عمري معها بين تلك الرياض والغياض. وكنت ارى الهنود يتمدنون بعملهم في الزراعة واصغائهم الى صوت الديانة فخيل لي انني ارى لاول مرة حفلة اول قران حدث في بلادنا بين الارض والانسان. فهو يعطيها العهد في هذا القران على ان يخدمها ويسقيها بعرق جبينه وهي تعاهده على ان تغذيه وتغنيه وتحمل على ظهرها وفي بطنها اولاده واجداده (١)

,, وقد رمت معرفة الطرق التي يحكم بها الراهب الشيخ هذه المملكة الصغيرة فقال لي ,, لم اسن لهم نظاماً ولم افرض عليهم فروضاً وانما علمتهم هذه الامور الثلاثة ,, ان يحبوا بعضهم بعضاً. ويصلوا الى الله. ويؤمنوا بوجود عالم آخر

(١) « المعرب » هذا الكلام الجميل يذكرنا دعوة الجامعة المهاجرين السوريين في الولايات المتحدة الى الزراعة

أفضل من هذا العالم ” فان جميع شرائع البشر موجودة في هذه الامور الثلاثة ·
انظر الى وسط القرية ترَ بناء كبيراً فهذه كنيستنا نجتمع فيها مساء وصباحاً لحمد الله·
واذا كنت غائباً قام مقامي اكبر الشيوخ سناً لان الشيخوخة كالامومة ضرب من
ضروب الكهنوت· واذا كنت ترى الحقول موزعة على الزراع فما ذلك لان كل
واحد منهم يعمل لنفسه بل ذلك لتعليمهم الجد والاقتصاد وطرق المعيشة· اما مجموع
حاصلاتهم فتخزن في مخازننا العمومية وتوزع على الجميع بحسب حاجاتهم · وهذا
التوزيع منوط باربعة من شيوخهم · هذه احكامنا ومعيشتنا “

„ وكان الراهب الشيخ يتكلم وانا في دهشة من كلامه وتأثير العيش الطبيعي
الزراعي في اخلاق اولئك الهنود وحالتهم· فان الزراعة (سمرتهم) في الارض
بعدان كانوا قبائل متنقلة وانقذتهم من قلق معيشتهم المتنقلة السابقة وهذبت اخلاقهم
ولطفت اميالهم وبالجملة مدنتهم ورقتهم · فيا صديقي رنه انني لا اشكو
من العناية الالهية ولكنني لا استطيع تذكر تلك (الهيئة الانجيلية) التي كانت
عائشة على شاطئ تلك البحيرة دون ان اتألم واتأسف لانني لم اصرف حياتي
بينها · فان اقصى اماني كانت ان اعيش في احد اكواخها مع اتالا مجهولاً
من جميع الارض كتلك الانهر التي تجري في القفار ولا اسم لها

الدين والجهل

الفصل الرابع

امرٌ لم يكن في الحسبان

„ ثم عدت والشيخ نقصد المغارة لظننا ان اتالا انتبهت من الرقاد· وكان املي
في السعادة في تلك القرية مع زوجتي اتالا شديداً ولم اكن ادري ان الشقاء

والألم يرصداني على الباب

,, فانا لما بلغنا المغارة لم نجد اتالا امام الباب فعراني خوف طبيعي لهذا السبب وارتعدت نفسي وتحبس لساني وزاد في اضطرابي ظلام مدخل المغارة فلم اجترئ على الدخول • فدخل الراهب الشيخ وهو في حيرة كحيرتي فاضرم بعض اغصان الصنوبر ورصابيه فوق فراش اتالا يبحث عنها وانا واقف وراءه • فرأينا اتالا في فراشها مستندة الى ذراعها ووجهها اصفر كوجوه الموتى والعرق ينضح من جبينها وشفتاها نصفهما مطبق ونصفهما مفتوح كانما هي تروم الابتسام لي وعيناها جامدتان ولكنهما ما زالتا تتحركان كانها تروم ان تعرب لي بهما عن صدق حبها

,, فحبس هذا المنظر لساننا فاقنا ساكتين هنيهة لحيرتنا ودهشتنا ثم قال الشيخ

,, اظنها اصيبت بحمى وقتية بسبب التعب فلنتكل على الله يابني وهو يرأف بنا ويشفيها ''

,, وكان الدم قد جمد في عروقي فلما سمعت كلام الشيخ سري عني وعادني الامل فانتقلت من حالة اليأس المطلق الى الامل المطلق في دقيقة واحدة • وهذا الانتقال مألوف لدى الطبائع المتوحشة • وكانت اتالا في ذلك الحين تهز رأسها حزينة وتومئ الينا ان ندنو من فراشها • فدنونا منها فقالت بصوت متهدج

,, يا ابتاه قد دنوت من الموت • وانت يا حبيبي شكتاس اصغ الآن الي لاطلعك على السر الذي سألتني عنه غير مرة • ولا تقطع حديثي ببكائك او كلامك او يأسك فانني على ابواب الموت واخشى ان تنقطع انفاسي قبل ان اقص عليك كل قصتي لانني أحس بثقل هائل يضغط على صدري

,, وهنا سكتت اتالا لما نالها من التعب في كلامها ثم قالت

— انني كنت شقية قبل تكوني وولادتي • فان امي حملت بي والحزن والشقاء يكتنفها ويكتنفني • وقد أتعبتُ بطنها وأثقلته فتعذبتْ في وضعي عذاباً شديداً • ولما ولدتُ قطعت الأمل في حياتي فنذرت للملكة الملائكة (١) انها تحفظ لها

(١) مريم العذراء

(عذرتي) (١) اذا هي حفظت حياتي . وهذا النذر هو الذي يسوقني الآن الى القبر

,, وحين توفيت امي كان عمري ١٦ سنة فقبيل وفاتها دعتني الى فراشها في حضرة احد المرسلين المسيحيين الذي كان يعزيها ويقويها قبل الموت وقالت لي ,, يا بنية انك تعلمين النذر الذي نذرته بشأنك فعليك ان لا تكذبي امك. انني اتركك بين قوم وثنيين يكرهون الهك واله امك وابيك — هذا الاله الذي حفظ حياتك بمعجزة. فهم لا يستأهلون ان تعيش بينهم فتاة مسيحية مثلك (٢) فاختاري (نقاب العذارى) يا بنية وفقاً لنذري وكوني راهبة تستريحي من مشاق خدمة الاكواخ وتنجي من الشهوات والاهواء التي عذبت نفس امك . تعالي الآن يا حبيبتي . تعالي واقسمي بصورة (ام المخلص) بين يدي هذا الاب الصالح امام السماء وامك المائتة انك تحفظين نفسك وتقضين عمرك عذراء . ولا تنسي انني عاهدت الله وملكة العذارى على ذلك (٣) فاذا نكثت فيما بعد بالوعد الذي تعدينني به الآن وحنثت بيمينك فان الله يعذب نفس امك بالنار عذاباً ابدياً

,, فاستخرطتُ في البكاء لدى سماعي هذا الكلام من امي وانطرحت بين ذراعيها ووعدتها بكل ما سألتني ان اعدها به . فدنا مني حينئذ الراهب الذي كان واقفاً يسمعنا والقى عليَّ كلاماً هائلاً لم افهمه ثم دفع اليَّ علامة تجعلني مرتبطة بعهدي ووعدي مدى العمر كله . فقبّلتني امي وانذرتني بلعنتها وهي في الآخرة اذا نكثت عهدي واوصتني بكتمان هذا العهد عن الوثنيين ثم عانقتني وفارقت الحياة

«١» العذرة البكارة

(٢) (المعرب) هذا هو الداء العضال الذي يجعل المتدين بدين ما يرى الناس حتى قومه واهله الذين خرج منهم وعاش بينهم غرباء عنه لمجرد كونهم يدينون بدين غير دينه . وعلى ذلك يُمحى : الوطن : ولا تبقى صلة بين الناس غير صلة الدين . وكم فتك هذا الداء بالشرقيين مسلمين ومسيحيين

(٣) مريم العذراء

,,وفي بدء الامر لم ادرك خطر اليمين التي اقسمتها والعهد الذي اعطيته • فانني عشت فخورة بكوني مسيحية والدم الاسباني يجري في عروقي فلم اكن ارى حولي احداً اهلاً لي • وكان يسرني ان لا يكون لي زوج غير الله الذي انقطعت اليه • ولكني لما لقيتك يا شكتاس ورأيتك فتى في شرخ الشباب جميلاً والموت حرقاً بالنار يهدد حياتك اخذتني الشفقة عليك ومنذ هذا الحين اخذت احس بثقل النذر الذي نذرته والعهد الذي اعطيته

,,وما اتت اتالا على هذا الكلام وسكتت تستريح حتى التفتُّ الى الشيخ الراهب وقبضتاي مطبقتان غيظاً وحنقاً كأنني اهدده وصحت بغضب ,, اهذه هي الديانة التي اطنبت في وصف محاسنها ايها الشيخ • اهذا هو الاله الجائر الذي تدعونا اليه • سحقاً لذلك العهد الذي يسلبني اتالا • وهلاكاً لذلك الاله الذي يحارب الطبيعة • ايها الراهب ماذا جئت تفعل عندنا في هذه الاحراش • هل جئت تعذبنا بمثل هذا

,, فصاح الراهب الشيخ بصوت هائل ,, جئت لاخلصك ايها المسكين • جئت اسكّن اهواءك وشهواتك وامنعك من التجديف على الله • ايها الفتى بأسي حق تجدف على السماء وتشكو الله وانت لم تدخل الحياة بعد ولم تفعل فيها شيئاً ولم يصبك شيء • اي خدمة خدمت واي نفع نفعت واين فضائلك التي تجيز لك وحدها ان تشكو واين الآلام التي تألمتها واين الظلم الذي اصابك • يا لك من شقي • انك جئتني باهواء وشهوات ثم تجترئ على الشكوى من الله والناس

,, وكانت عينا الشيخ تقدحان شرراً في اثناء كلامه وصوته الهائل يدوي في المنارة دوياً ولحيته الطويلة تهتز اهتزازاً شديداً فخيل لي وهو ينطق بكلامه الصاعق انه اله لا بشر • فانطرحتُ على قدميه وسألته الصفح عن غضبي لان حالة اتالا اضاعت صوابي • فاجابني متلطفاً (يا بني انني لم اؤنبك من اجل نفسي بل من اجلك ومن اجل الله • فهدئ روعك وانصت لاختك لتتم حديثها • ولا تيأس فلكل أمر تدبير

,, فقالت اتالا تكمل حديثها (يا حبيبي شكتاس . لقد شهدتَ مقاومتي لك بعد سفرنا ولكنك لم تشهد الا جانباً منها . ان العبد الاسود المسترّق الذي يسقي عرقه رمال فلوريدا المحرقة لم يتعذب عذابي في الايام التي صرفتها معك. فانني كنتُ ارى امي في الحلم تارةً تهددني وتطردني وطوراً تتعذب بلهيب النار من اجلي . وفي اليقظة كنتُ اسمع في الهواء صوتاً كصوتها يشكو ويخيل لي انني أرى لهيباً صاعداً من الارض وهو لهيب النار التي تحرقها . يا اماه ان طيفك كان يرافقني في كل خطوة وصوتك يذكرني نذري وعهدي ساعةً ساعةً . فاصبحت ليالي معك يا شكتاس مملوءة بالخيالات ونهاري كان لي عذاباً يقصر عنه كل عذاب . وأي عذاب أشد من ان أراك بجانبي المسك وتلمسني بعيداً عن جميع البشر في عزلة مطلقة ومع ذلك أرى بيني وبينك وادياً عميقاً . لقد كان مشتهاي الوحيد في هذه الدنيا ان اعيش تحت قدميك أخدمك كعبدة لك واعدُّ طعامك وأصلح فراشك في اي كوخ من الاكواخ في اية ارض من اراضي الله . هذه كانت سعادتي الكبرى وهذا كان هنائي وقد كانت هذه السعادة تحت يدي ولكنني لم اكن أستطيع القبض عليها . وكم من مرة تمنيت اماني غريبة . فتارة كنتُ تمني ان لا يبقى في الارض بشر غيري وغيرك لنعيش فيها وحدنا . وطوراً — حين كنتُ ارى يداً الهية تقبض عليّ وتصدم ثورات نفسي الهائلة المتجهة نحوك كنتُ اتمني ان تُهدم الالوهية والعالم كله ونهبط معاً متعانقين متصلين بين بقايا الله وانقاض العالم من هاوية الى هاوية حتى فناء الجميع فناء ابدياً . والآن وانا في فراش الموت على اهبة الوقوف لدى القاضي الاعظم بعد ان جعلتُ عذرتي تفترس حياتي ارضاء لامي — انني احس بأسف لانني لم اهبك نفسي . . .

,, فهنا صاح الشيخ الراهب (لالا يابنية لا تقولي هذا . ان ألمك يضلك وقلما تضمنت الاهواء الثائرة الى هذا الحد شيئاً من العدل والحق . بل هي ضد الطبيعة ايضاً لانها ليست في الطبيعة . ومن أجل هذا يعدُّ ذنبها خفيفاً لدى الله لانها تنشأ عن فساد حكم العقل لا عن فساد في القلب . فسكني نفسك

يا بنية واعلمي ان الامر ليس كما تظنين . فان الديانة الحقيقية لا تقتضي ضحايا فوق طاقة البشر. وتعاليمها الصحيحة وعواطفها الحقيقية هي فوق تلك التعاليم والعواطف التي يُراد منها جعل صاحبها بطلاً . فانك لو كنتِ سقطتِ يابنية في اثناء مقاوماتك فان الراعي الصالح لا ينبذك نبذًا قطعيًا بل يطلبك ويعيدك الى حظيرة الخراف . وكنز التوبة كان مفتوحًا امامك . ان البشر لا يصفحون عن ذنب يا بنية الا اذا سالت في سبيله سيول من الدماء اما الله فيصفح عن الذنب بدمعة واحدة صادقة . ثم لا تيأسي يابنية بل سكني روعك والجئي الى الله فان حالتك تقتضي الهدوء والسكينة . قلت لك ان الديانة لا تقتضي ضحايا فوق طاقة البشر واقول لك الآن انني استطيع تدبير الامر الذي وقعتِ فيه . واظن من السهل حلك من نذرك فاطمئني . ان نذرك هذا (بسيط) وفي يد اسقف (كوبك) سلطة حلّه فسأكتب اليه غدًا التمس منه هذا الحلّ فيحلك منه وتقترنين بشكتاس وتعيشين معه براحة وسلام بين رعيتي

,, فلما سمعت اتالا هذا الكلام صاحت صيحة هائلة واصابتها نوبة عصبية شديدة . ولما فارقتها النوبة صاحت وقد ضمت يديها (أ كان لي دواء ولم ادرِ ؟ أكان في الامكان حلّي من نذري) فاجاب الشيخ (نعم يا بنية لذلك طريقة سهلة فافرحي واطمئني) فصاحت اتالا (ولكن فات وقتها فات وقتها . يا رباه انني اموت حين علمتُ انه كان في إمكاني ان اكون سعيدة . فلماذا لم اعرف هذا الشيخ الصالح قبل الآن . آه لو عرفته من قبل لعشتُ مع شكتاس أهنأ عيش وعزيته وعلمته دين المسيح) فدنوت حينئذ من اتالا واخذت يدها وقلت (هدئي روعك يا اتالا فاننا سنذوق هذا الهناء) فاجابت (كلا كلا) فقلتُ (ولماذا) فصاحت تلك المسكينة :

— لم اقص كل شيء بعد . أمس ... في اثناء الزوبعة ... في الغابة ... كدتُ انقض عهدي وانسى نذري ... وكنتُ على وشك القاء امي في النار وجلب لعنتها عليّ ... والكذب على الله الذي انقذ حياتي في طفوليتي بمعجزة ...

فلجأتُ الى الحيلة الاخيرة فرارًا من تعذيب امي بالنار والكذب على الله ... ياشكتاس انك حين كنتَ أمس تقبل شفتيّ المرتجفتين في الغابة كنتَ تجهل انك تقبل شفتي الموت ...

,, فصاح الراهب (يالله ماذا فعلتِ يا بنية)

,, فصاحت اتالا بيأس وعيناها تكادان تخرجان من وجهها (جناية يا أبتاه. ولكني لم أهلكْ احداً غيري وانقذتُ امي)

,, فصحتُ وصدري يكاد ينشقُ خوفاً (كلي حديثك كلي فاننا لم نفهم بعد)

,, فابتسمتْ اتالا ابتسامة الموت وقالت (ستفهم يا حبيبي شكتاس . اني حين فررتُ معك توقعتُ ضعفي وعجزي عن المقاومة... فقبل تركي قبيلتي اخذتُ في جيبي ....) فصاح الراهب خائفاً ,, أسماً اخذتِ ؟ " فصاحت اتالا ,, وهو الآن في جوفي "

,, فسقط المصباح من يد الشيخ الراهب وصحتُ انا صيحةً دوت لها المغارة وانطرحتُ على الارض مغمى عليّ بجانب حبيبتي . فامسكنا الشيخ بيديه واخذ يبكي لبكائنا فكانت دموعنا نحن الثلاثة تجري معاً وتمتزج في ظلام المغارة على فراش النزع والموت . ثم ان الشيخ تغلب على نفسه فنهض الى النار فاضرمها وقال ,, فلنتنبه من هذا الذهول ياولديّ ولنثق برحمة الله . ولنجثُ بخشوع نسأله الرأفة . سامحكِ الله يا بنية لماذا لم تخبريني أمس هذا الخبر " فقالت اتالا اني نهضتُ في ليل أمس يا أبتاه وطلبتك لاخبرك خبر ابتلاعي ذلك السمّ في الغابة ولكني ما وجدتك . فكأنّ السمّ شاءت معاقبتي على فعلي . ثم هب اني وجدتك يا ابتاه فانك عاجز عن ان تقاوم هذا السم الزعاف لان الهنود وهم الذين يصطنعونه لا يعرفون له دواء . ويا حبيبي شكتاس تصوّر مبلغ دهشتي بعد تناولي هذا السم في الغابة حين رأيتُ انه لم يفعل فيّ حينئذ مع معرفتي انه سريع الفعل . فان حبي لك تضاعف حين رأيت ان نفسي تأبى مفارقتك بسرعة

,, فتصور يا صديقي رنه مبلغ عذابي وشقائي حين كنتُ اسمع هذا الكلام من

اتالا ٠ فانني كنتُ كمن مسته جنة فانطرحتُ اتمرّغ على الارض وأصبح والطم وجهي وا كادا اختنق نفسي ٠ فكان الشيخ يتراوح بيني وبين اتالا لتسكين آلامنا بكلامه العذب وحكمته الرائعة ولكنه لم يؤثر علينا لشدة يأسنا ٠ وقد حاول مداواة اتالا ومقاومة السمّ الذي سرى في دمها فذهب سعيه سدى ٠ فان التعب والحزن والسمّ وهوى اتالا المميت الذي كان أفعل من السم — كلها كانت قد تحالفت على تلك الفتاة المسكينة وصرعتها ٠ ففي المساء بدت في جسمها اعراض التسمم فتورمت اعضاؤها وبردت اطرافها ٠ فأخذت تقول لي (مسّ اصابعي يا شكتاس الا تراها بردتْ ٠ بالامس يا حبيبي كنتَ اذا لمستَها ترتعد نفسي ارتعاداً اما الآن فلا اشعر بلمسك لها ٠ وانني أكاد لا اسمع صوتك ولا أرى الاشياء التي في المغارة ٠ اسمع ٠ أليس هذا صوت العصافير تغرّد على الاشجار ٠ اظنُّ ان الشمس مائلة الى المغيب ٠ شكتاس شكتاس ما أجمل أشعتها غداً على قبري

,, انني اموتُ شريدة طريدة بعيدة عن قومي ووطني ٠ ولكن يا شكتاس انت قومي ووطني وأهلي وكل مالي ٠ عش يا حبيبي سعيداً بعدي ولا تنسَ حبيبتك اتالا التي يحق لها ان تدعو نفسها اختك ايضاً لانه لم يكن بينك وبينها الا ما يكون بين الاخ والاخت ٠ آه يا رباه انني اموت في زهرة الشباب وقلبي مفعم بالحياة

,, ثم ان اتالا رأت ان كلامها هذا يجري دموعنا ويدمي قلبينا فقالت ,, عفواً عفواً يا صديقيَّ عن ضعفي هذا ٠ انني امسيت في منتهى الضعف ولعلّني اقوي نفسي ٠ يا رجل الله ارحمني وقوّني وساعدني ٠ الا ترى ان امي يسرّها فعلي وان الله يغفر لي

,, فاجابها الراهب الشيخ باكياً وهو يمسح دموعه بيديه المرتجفتين واصابعه المقطوعة

— يا ابنتي ان جميع مصائبك ناشئٌ عن جهلك وقص في تربيتك

وتمايلك . فتعزي فان الله سيغفر لك بسبب سذاجة قلبك . على ان امك وذلك المرسل الراهب الذي لم يكن حكيماً هما اكبر ذنباً منك . فقد جاوزا حدود وظيفتهما بما فعلاه من استدراجك الى نذر وعهد لا تعلمين مبلغ اهميتهما ولا تدركين هل في امكانك القيام بهما . فقد أخطأا خطأً عظيماً بربطك وتركك ولكن فليرحمهما الله وليبرّد نفسيهما . ولقد كنتم انتم الثلاثة (انت وامك وذلك المرسل الراهب) خير مثال لذلك التحمس الديني الذي كله خطر اذا لم يكن مقروناً بالحكمة والسداد وحسن التدبير

,, واذا كان الله يا بنية قد قضى الآن بأن تتركي هذه الحياة فصدقيني انك لا تتركين شيئاً يستأهل الاسف . فانما الحياة كلها تعب وعذاب وشقاء ومصائب(١) انك نشأت في القفار بعيدة عن الهيئة الاجتماعية ومع ذلك فقد ذقت ما ذقته من مصائب الحياة فكيف بك لو حططت رحالك في شاطئ اوروبا القديم(٢) وسمعت الصراخ الوارد من جهة المدن — صراخ اليأس والعذاب والتعب والفقر والجهل والفساد والمصائب البشرية بتمامها . كل حي يتعذب في هذه الدنيا حتى اعظم الناس . فكثيراً ما شوهدت الملكات يبكين كعامة النساء وكثيراً ما ادهش الناس لغزارة الدموع التي جرت من مآقي الملوك(٣)

,, وعلى اي شيء تأسفين يا بنية حين خروجك من هذا العالم ? اعلى ذهاب حبك سدى ? يا ابنتي ان الحب حلم ذاهب وبرق خلّب . فان القلب البشري سريع التغير ولا شيء في الارض يدوم . ان حواء خلقت خاصة لآدم

---

(١) (المعرب) ان الفيلسوف نيتش يقول ان هذه الافكار دليل على مرض صاحبها . على انها مرض وضعف لدى الاصحاء لانها تنفي هممهم وعزائمهم في جهاد الحياة ولكن لا بأس بها على فراش الموتى لانها تعزية مفيدة .

«٢» «المعرب» لم يقل (وشاطئ اميركا) لانها لم تكن قد تمدنت

«٣» (المعرب) ربما كان في هذا الكلام اشارة الى دموع الملكة ماري انتوانت وزوجها لويس السادس عشر اللذين قتلا في الثورة الفرنسوية

وقد براها البارئ موافقة له من كل وجه وغرس لهافردوساً مخصوصاً وجعلهما فيه خالدين طاهرين ومع ذلك فلم يقدرا على الثبات في نعيمهما هذا . فاي رجل وامرأة مقترنين بعدهما يمكن ان يدوم لهما نعيم . اذا تأسفت على الحب ألا تذكرين تعب الاكواخ وعذاب الفقر وشقاء تنافر الاخلاق وعناء شرود القلب بين الزوجين . فانه مما هو مغروس في الطبيعة البشرية انها لا تستطيع البقاء منجذبة الى شيء واحد مدى العمر انجذاباً مطلقاً . ونفس الرجل يتعبها البقاء على حب شخص واحد حباً مطلقاً دائماً . فكيف تكون حالة الزوجين حينئذ ؟ صدقيني يا بنية ان هذا الذي يسميه الفتيان والفتيات (حباً وغراماً) ليس الاوهاماً وخيالاً وحديث خرافة واباطيل يحيكها التصور . انظري يا بنية انني شيخ طاعن في السن ولكنني يابنية اعترف لك الآن كما أعترف لله ان نفسي قد اضطربت ايضاً في حياتي . ورأسي لم يكن اصلع فيما مضى كما هو الآن وهذا الصدر لم يكن فيما مضى هادئاً ساكناًمستريحاً كما هو الآن . فثقي بخبرتي يا بنية واحمدي العناية الالهية التي تنشلك بسرعة من وادي المصائب والهموم . وكانني أرى منذ الآن لباس العذارى الابيض واكاليلهن الزاهرة تعدّ لك في السماء ويُهبَط بها الى الغيوم لاستقبالك . كانني اسمع ملكة العذارى والملائكة تناديك ,, تعالي يا خادمتنا الشريفة واختنا الحبيبة . تعالي يا حمامة بلا دنس واجلسي معنا في ربوع السعادة الابدية

,, وهنا سكت الشيخ . فكما تهدأ الريح لدى بزوغ نور النهار وتخيم السكينة والهدوء في الفضاء هكذا سكّن كلام الشيخ نفس حبيبتي وهدأ روعها . فامسى همها في تهدئة روعي وتصبيري على فقدها لا في ندب صباها والتأسف على حياتها وحبها . فكانت تارة تقول لي انها تموت سعيدة اذا مسحتُ دموعي وتركت البكاء . وطوراً كانت تحدثني عن وطني وامي واهلي صرفاً لفكري عن المي الحاضر الى المي الغابر تخفيفاً له . واونة كانت تقويني بقولها ان قلب الانسان يشبه تلك الاشجار التي لا يخرج منها عصيرها النافع في الامراض الا اذا شُقّت

بسكين . والقلب البشري لا يطيب ويجود اثره لدى الناس الا اذا هذبته مصائب الحياة وآلامها . وحين كانت تفرغ من كلامها هذا كانت تلتفت الى الشيخ الراهب لترى في وجهه أثر كلامها وتستمد منه من القوة والتشجيع ما كانت تجود عليّ به . وكان الشيخ الراهب قد تحمس لرؤيته اثر كلامه في نفس اتالا وحركت الشفقة عظامه البالية فبث فيها القوة فضاعف سعيه وهمته في تدبير الادوية وإضرام النار وتبريد الفراش بينما كان في اثناء ذلك يحدث المائتة المسكينة عن الله وسعادة الصالحين في الآخرة . وكان وهو يجول في المغارة وفي يده المصباح شبيهاً بملاك يتقدم اتالا الى القبر وينير طريقها . وكانت المغارة مفعمة من عظمة هذه الوفاة وسذاجتها . ولا ريب في ان الارواح السماوية كانت ترقب من بعيد خاتمة هذا المشهد الذي كان فيه الدين وهو واحد يحارب ثلاثة وهي الحب والشباب والموت . وقد انتهى النزاع بانتصار فضيلة الدين فحلّ في نفوسنا حزن هادئ محلّ اليأس الذي استحكم لدينا من قبل

وفي منتصف الليل ظهر ان اتالا تنبهت وقويت فصارت تردد صلاة الراهب . وبعد حين مدت اليّ كفها وقالت لي ,, يا ابن اوتاليسي أتذكر الليلة الاولى التي جئتك فيها وانت اسير فحسبتني (عذراء الحب الاخير) لله ما أعجب هذا الاتفاق " ثم سكتت . وبعد بضع ثوان قالت ,, انني حين افكر في انني سأفارقك فراقاً لا لقاء هنا بعده أجمع نفسي واضغط عليها فيخيل لي انني دستُ الموت واصبحتُ خالدة لفرط حبي لك . ولكن يا رباه فلتكن ارادتك" ثم سكتت وبعد حين قالت ,, لم يبق لي الآن الا ان اسألك الصفح عن تعذيبي لك وإتعابك بكبريائي وتقلبات اميالي . ولكن يا شكتاس ان قليلاً من التراب سينهال عليّ فيجعل بيني وبينك عوالم شاسعة ويُنقذك من ثقل مصائبي" فاجبتها وانا اغص بدمعي ,, كان عليّ انا ان اسألك الصفح يا حبيبتي لانني كنت السبب في شقائك " فقالت ,, كلا كلا فانني كنتُ سعيدة في الايام التي صرفتها معك

,, وهنا خفت صوت اتالا وانتشرت اشباح الموت حول عينيها وفيها لجملت تخاطب الارواح غير المنظورة واخذت يدها تلمس وتضطرب كانها تفتش عن شيء لا تجده . ثم جمعت قواها وقبضت بيدها على صليب كان معلقاً في عنقها وسألتني حلّ عقدته ثم قالت

— انني لما زرتك لاول مرة رأيتَ على لهيب النار هذا الصليب يسطع في صدري . وهو الآن كل ما تملكه حبيبتك اتالا وقد اهداه الى امي لوبيز ابوك وابي وذلك بعد ولادتي ببضعة ايام . فاقبل مني الآن يا اخي هذا الارث الثمين وصنه عندك تذكاراً لمصائبي . اسمع يا صديقي . اننا لو اقترنا في هذه الحياة لكان قراننا قصيراً فخير لنا ان نقترن في العالم الباقي . اننا لا نفترق ياشكتاس افتراقاً ابدياً بل سنجتمع هناك وانا الآن اتقدمك وانتظرك في مملكة السماء . فاذا كنت تحبني يا شكتاس فادخل في الدين المسيحي وتعلّم مبادئه تسهيلاً لاقتراننا هناك ... وانك لترى بعينيك ان هذا الدين يفعل المعجزات لانه يجعلني افارقك بهدوء وسكينة دون ان اموت حزناً ويأساً . على انني لا اسألك يا شكتاس الا وعداً مجرداً فقط ولا اوجب عليك اليمين فانني علمتُ خطرها وضررها فربما حالت هذه اليمين بينك وبين نساء سيكنّ أسعد مني .... اه يا اماه ارضي عني .. ويا عذراء لا تسخطي عليّ ... ويا الهي اغفر لي لانني اصرف الآن افكاري عنك وهي من الواجب ان تكون لك وحدك في هذه الساعة ''

,, فاذرفتُ دموعاً سخينة وتخفيفاً لالم اتالا وعدتها ان اعتنق الديانة المسيحية يوماً ما

,, فهنا نهض الراهب وقال بصوته الجهوري وقد مد يديه الى سقف المغارة (يا ولديّ قد آن ان ندعو الله بيننا)

,, فما فاه بهذا الكلام حتى شعرنا بقوة خارقة دفعتنا لجثونا على الارض . اما الراهب ففتح مكاناً سرياً في سقف المغارة فظهرت فيه كأس من ذهب مغطاة بغطاء من حرير وجثا يصلي . فلما ظهرت الكأس خُيل لنا ان المغارة قد

أُبيرت بغتة . ولما تناولها بيديه وتقدم بها نحو اتالا وهو يرتجف ُخيل لي انني اسمع الملائكة تنشد في اعالي الشجر خارجاً وأنني أرى روح الله هابطة من قمة الجبل

,, فمد الراهب اصبعيه الى الكأس وتناول بهما قربانة بيضاء كالثلج وادناها من اتالا وهو يقول اقوالاً لم افهمها . وكانت اتالا قد فهمت مراد الراهب فسكنت جميع آلامها وظهرت الحماسة في عينيها وفتحت فاها بقوة كانها تجمع جميع قوى نفسها في شفتيها . ولما دنت من الراهب مدت فاها وتناولت به القربانة . ثم ان الراهب تناول قليلاً من القطن فغمسه في الزيت المقدس ودهن به صدغي اتالا واخذ ينظر اليها . وبغتة صرخ بصوت جهوري قائلاً ,, ايتها النفس انطلقي الى خالقك بسلام ''

,, فدهشتُ ونظرتُ الى الراهب واناء الزيت وقلت له ,, ما هذا يا ابتاه . أهو دواء يردهُ الحياة الى اتالا ''

,, فانطرح الراهب الشيخ بين ذراعيّ وقال باكياً ,, نعم يا بنيّ انه يردها الى الحياة الابدية ''

,, فالتفتُ الى اتالا فرأيتها قد اسلمت روحها و باتت جثة هامدة

وهنا سكت شكتاس ليمسح دموعه التي كانت تجري ثم قال ,, يارنه لقد مرت على هذه الحادثة الاليمة سنوات عديدة وصرتُ الآن شيخاً هرماً ومع ذلك لا اتمالك من إذراف دمع الاسف والاسى كلما تذكرتها '' ثم أخرج من جيبه شيئاً وقال باكياً ,, انظر الآن ياصديقي ذلك الاثر الذي وهبتنيه اتالا وهي على فراش الموت . هذا صليبها أحفظه كما أحفظُ نفسي . ولكنني واأسفاه اصبحتُ عاجزاً عن مشاهدته لفقدي البصر اما انتَ فتراه وهنيئاً لك . مسّهُ واخبرني هل تغير ذهبه واكمد؟ هل ترى عليه أثراً لدموعي ونار قلبي؟ هل ترى فيه الموضع الذي كانت تمسكه يدها المقدسة

,, ثم انني اكفيك عناء تتمة قصتي . فلا اذكر لك اليأس الذي وقعتُ فيه مدة يومين كاملين حين رأيتُ حبيبتي امامي جثة هامدة دون ان اصغي الى

تعزية الراهب الشيخ ونصائحه او أبالي بدموعه التي كان يمزجها بدموعي . ولا اذكر لك كيف زيّنتُ حبيبتي بالازهار وحملتها على ظهري لدفنها تحت الجسر في الوادي مع مساعدة الراهب الشيخ لي . ولا كيف عدتُ الى بلادي واليأس مستولٍ عليّ وصورة أتالا امامي تنغص عيشي العمر كله

﴿ الفصل الخامس ﴾

الخاتمة

قص شكتاس بن اوتاليسي هذه القصة على رنه الاوروبي وهما سائران في الحملة لصيد كلاب الماء . والآباء قصوها على الابناء بعدهما . وقد سمعتها انا من بعض الهنود في اثناء سياحتي في بلادهم فرويتها بحرفها

,, وقد رمتُ الوقوف على ما وقع بعد ذلك لشكتاس ورنه والراهب الشيخ وقريته . فسألتُ الهنود والحجت في السؤال فلم اظفر منهم بجواب يشفي الغليل . ولكني في ذات يوم وانا اتنزه على شاطئ شلال نياغرا وجدتُ اماً هندية مسكينة تمرض طفلها ميتاً على اغصان الاشجار وتندبه . فدنوتُ منها واعنتها على طرد الذباب بالاغصان عن رمة وحيدها . فتأثرت بعملي وشكرتني . فاغتنمت هذه الفرصة وسألتها هل سمعتِ يا اختي بشكتاس ورنه والراهب او بذره . فدهشت وسألتني كيف عرفتَ باخبارهم . فاجبتها اني قد سمعتها من الهنود واحب الوقوف على تتمتها . فقالت اني اقص عليك تتمة اخبارهم لانك رحمتَ ابني واعنتني على طرد الذباب عنه . ثم قالت

ـــ اني ابنة ابنة رنه الاوروبي (١) الذي تبناه شكتاس . ونحن بقايا قبيلة (تتشز) التي حمل الفرنسويون عليها وذبحوها انتقاماً لابناء بلادهم . وقد قتلوا شكتاس ورنه في هذه الحملة . اما الذين نجوا منا فقد لجأوا الى قبيلة شيكاساس جيراننا ولكنا لم نقم في بلادهم سبعة اقمار (٢) حتى طُردنا منها بحجة ان

«١» اي حفيدته «٢» سبعة اشهر

ملكاً في اوروبا قد وهب اراضينا للبيض المقيمين في فرجينيا . ولذلك خرجنا نتيه في الارض ولا وطن لنا وعظام اجدادنا محمولة معنا على دوابنا . وقد ادركني المخاض في الطريق فولدت طفلاً ولما كان لبني رديئاً لمشقة السفر مات طفلي وانا الآن ابكيه .

فشاركت هذه المرأة الشقية في حزنها وسألتها ,, وماذا وقع يا اختي للراهب الشيخ الاب اوبره '' فاجابت ,, انه لم يكن اسعد حظاً من شكتاس ورنه الاوروبي . فان قبيلة شيريكواه التي هي اعدى اعداء الفرنسويين هجمت على قريته ومغارته التي اكتشفوها من قرعه الجرس في اثناء الزوابع دعوة للمسافرين التائهين فقتلوا رعيته واحرقوا قريته واتلفوا مزروعاتها . وكان في امكان الشيخ ان ينجو بنفسه ولكنه آثر الموت مع رعيته على النجاة وحده فعذبته قبيلة شيريكواه اشد تعذيب ثم قتلته حرقاً بالنار

فسألت الهندية ,, وهل علمت شيئاً عن قبر اتالا صديقة شكتاس وهل يمكن العثور عليه الآن ''

فقالت ,, ان شكتاس بعد عودته من ارض البيض في اوروبا وذلك قبل مقتله سمع بمصاب الشيخ الراهب فقصد الى قريته فوجدها قفراء تأوي اليها الوحوش بعد ان كانت جنة زاهرة . ولم يجد من آثار الراهب في المغارة غير الافعى الاهلية فأخذها ودفاءها ووضعها في جيبه . ثم نبش قبر اتالا حبيبته فوجد فيه هيكل عظام رجل وامرأة فعلم ان عظام الرجل هي عظام الشيخ وعظام المرأة هي عظام اتالا فحملها ونقلها الى بلاده . ولما رحلنا عن بلادنا حملنا هذه العظام معنا في جملة عظام موتانا وفيها عظام شكتاس نفسه . ويمكنك ان تشاهدها الآن اذا شئت

فتاقت نفسي الى مشاهدة تلك الآثار البالية فنهضت الى حي الهندية ودنوت من تلك العظام المقدسة وجثوت لديها بخشوع ساكتاً . ثم نهضت وانا اقول في نفسي ,, هكذا يمرّ في الارض مرّاً سريعاً كل ما هو جميل وفاضل وطيب

وحساس . فكأنه كتب الشقاء للفصل بين الناس "

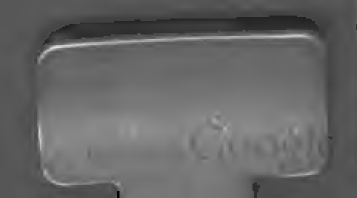
فيا ايها الهنود الاشقياء الذين رأيتهم يتيهون في قفار العالم الجديد يحملون عظام اجدادهم . يا من اضفتموني مع فقركم وانستم بي مع وحشتكم . عذراً وصفحاً لعجزي عن مبادلتكم هذه الضيافة لانني الآن مثلكم أتيه في الارض هدفاً لعدوان البشر . ولكني اشقى حظاً منكم لانني لم اتمكن من حمل عظام آبائي واجدادي (١)

﴿ تمت أتالا ﴾

الصيادون والزراعون — وقعت في الرواية عدة اغلاط مطبعية تركناها الى ذكاء القارئ . منها في الصفحة ٢٨ في عنوان الفصل الثالث (كلمة (الزراعة) والصواب (الزراعون) مناسبة للفصل الثاني الذي تقدمه وعنوانه (الصيادون) وهما اول اصناف الشعوب في بدء نشأتها

---

(١) « المعرب » قال المؤلف هذا القول لان اخاه وزوجة اخيه واباه قتلوا في الثورة الفرنسوية وامه توفيت بعد خروجها من السجن للعذاب الذي وجدته فيه على قوله وباقي اسرته تشتت شملها وكان نصيبه هو الفرار الى اميركا . وكان في صحبته صديق حميم له فاقاما تائهين في قفار فلوريده خمسة ايام دون طعام فانتحر صديقه لهذا السبب بين يديه



CHATEAUBRIAND

FARAḤ ANṬŪN